المغتـرب

غالى شكرى

حزين عمر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٤٢١ - ٢٠٠٠

الاخراج الفنى: عمر حماد

الغلاف: سميـرة المرصفى

المغترب

غالى شكرى

حزين عمر

● نصف كتاب !!

هذا الكتاب هو الجزء الأول من (المغترب)، جاء فى صيغة حوار طويل عميق بين جيلَيْن، يمثل الدكتور غالى شكرى الجيل الأول، وأمثل أنا الجيل الثانى.. ليأتى هذا العمل سيرة حياة للدكتور غالى، تتخلله قضايا الفكر والحياة وتساؤلات أجيال الشباب، ومعاصرى غالى، ومحبيه، وخصومه أيضًا.

وما ينقص هذا العمل هو الجزء الثانى والأخير منه - ولن يتم أبدًا!!.. عبر حوار كهذا.. لأن مرض غالى شكرى كان أقوى منا، ورحيله كان أسرع من تنفيذ خطتى لتقديم الكتاب كاملاً..

وينقصه كذلك أن يقرأه الراحل الكبير بنفسه، وأن يشكر معى هيئة الكتاب والدكتور سمير سرحان الذى نشره فى زمن وجيز، وفاءً وحبًا للراحل الكبير..

حزين عمر
١٩٩٨/٥/١٧

غالى شكرى... لماذا؟!

ليس يحلم مفكر باعظم من الوصول إلى الحقيقة! ينقِّب عنها فى أحشاء الأرض، أو اغوار البحر، أو طباق السماء، قد يرى لها ظلا يفيئ إليه، وقد لا يهتدى زمنًا وازمانا فيتابع مَنْ بعده مواصلة الجهد.

وأبعد أعماق الحقيقة حينما نفتش عنها فى الإنسان نفسه.. لأنه وحده - كفرد - أدرى بها، وأضن بإطلاع الآخرين عليها، وأحوط فى الكشف عنها.

وكلما تشعبت مناحى الثراء العقلى والنفسى فى الشخصية الإنسانية صعب الوصول إلى الحقيقة داخلها.. فما بالنا إذا كانت هذه الشخصية لمفكر ذى جذور وفروع وهوامش وظلال وأضواء وأنواء وأهواء ومُثُل ورغبات وخطط فى الحياة؟!

ليس من الصعب فقط أن نصل إلى حقيقة ذلك الإنسان - المفكر - مادام يكتنف طبعه كل هذه الحدود والأبعاد، بل من أصعب الصعاب حينها أن نهتدى إلى دروبه وشعابه وسراديبه.. خاصة وهو محوط بالتساؤلات التى قد تتعقد إلى درجة الإبهام، وهو أيضًا مادة للشائعات الطريفة حينًا، واللغط حوله حينًا، والقلق الثرى دائمًا..

هذا هو شأن الدكتور غالى شكرى: صعيدى الأصل، منوفى النشأة، عربى الهوية، أوربى التعليم، صاحب الطموح المفتوح: لنفسه ولأمته، لا يتوقف دأبه عند حد، ولا يقتصر نشاطه على مجال، ولا تتأطر علاقاته فى فئة بعينها. إنه إيجابى ومؤثر وعملى وجاد.. وفوق كل هذا هو قوى الإرادة: تراه أقوى، ما يكون وهو فى لحظات ضعفه!!

لقد كبا كبوة صحية لم يكن يستطيع غيره أن يتجاوزها: فقد الوعى، وتوقفت أعضاؤه عن الحركة، وعجز أطباء مصر عن التعامل معه، وأرهق أطباء فرنسا.. كل هذا فى أيام قلائل. وفجأة أضاء الأمل فى جسده، ودبت الإرادة العالية فى ذهنه، فعاد إلى نفسه وعادت نفسه إليه بعد ثمان وأربعين ساعة فقط من العلاج فى باريس.. فذهل معالجوه، وفرح أحباؤه.. ولم يغضب أعداؤه فلا عداء فى المرض، ولا شماتة فى الألم.

فى مرضه هذا استبان تأثيره ومدى تمكنه فى قلوب الناس - أو على الأقل فى عقولهم – فالتف حوله المختلفون معه والمثقفون.. وحفل به، واحتفى بأخباره كل من كان يكن له اللدد فى الخصومة.

لا ضير فى الاختلاف، لكن الضير كل الضير فى ألا نجد من نختلف معه.. حينها نصبح موتى.. على المستوى الفردى والعام.. إن الدول العظمى التى حرصت على صب كل العقول فى قالب واحد، وألغت الاجتهاد الفردى، والميزة الخاصة، والرؤية المختلفة سقطت سقوطًا مروعًا، ومازالت تغرق إلى قاع المحيط.

كان أساتذتنا الكبار: جيل أحمد أمين وأمين الخولى وطه حسين وعبد الوهاب عزام وسلامة موسى وزكى مبارك والعقاد والمازنى يختلفون فكريًا، ثم يلتقون إنسانيًا وشخصيًا.. يتصايحون على الملأ ويتهامسون على الانفراد!!.. إنه ليس النفاق، بل هو اتحاد الهدف الفكرى والقومى، واختلاف طرائق تنفيذه فقط.

وإذا كان منا من يختلف مع غالى شكرى فى موقف أو رؤية، فليس هنالك من الوطنيين العرب من لا يتفق معه فى تحديد عدونا الصهيونى الواحد، وأعدائنا المعنويين المنكفئين علينا: الجهل، والفقر، والظلم، والهمجية، والتخلف.

لِمَ لا نضىء مصباحًا فى طريق كل مفكر من مفكرينا ليرى نفسه منا، ونرى موقعنا منه؟! لِمَ لا نحاور رفاق فكرنا وخصومه أيضًا لنقف على خط التقاء من أجل الوطن الواحد الممزق شُعَبًا وشلاتٍ ورقاعًا ما بين المحيط والخليج؟!

إننى أتفق مع الدكتور غالى شكرى حينًا وأختلف حينًا.. ويبقى دائمًا حقه علينا كجيل تالٍ له أن نستكشفه، ونعيد تقديمه إلينا

بأقلامنا.. وهو هنا ـ فى هذا الشأن أيضًا ـ إيجابى لم يكد يتنبه إلى الفكرة حتى احتفى بها وأرادها كتابًا كاملاً لا حوارًا واحدًا، وهو مسجل وموثق..

فهذا الكتاب حوار جيلين يدلى كل منهما بهمه ورؤيته مع الاحتفاظ للخبرة والتقدم بحقهما ودورهما وعلينا نحن ـ كجيل شاب ـ أن ندلى بهواجسنا ومشاغلنا العقلية على مائدة أحد رموز الجيل السابق لنا.. لنقدم فى النهاية سيرة عقلية كاملة ـ بل وشخصية أيضًا ـ لغالى شكرى، تكمل ـ مع ما قدم من أدب وفكر ـ دائرة معرفتنا الكاملة به وبدوره وصداه.

حزين عمر

١٩٩٥/٩/٢٢

●●●

• عبث الطفولة

عبث الطفولة

هو كتاب مفتوح، يعبق بالصدق، والفكر، والموقف، والصراحة التى قد تصدم من لا يعرفه.. إنه امتداد لمدرسة العقلانية فى الفكر العربى، التى أرسى قواعدها شبلى شميل ثم سلامة موسى، وتلاهما لويس عوض.. وقد جاء الدكتور غالى شكرى تتمة لهذه السلسلة الفكرية الثرية الجامعة بين الأصالة والحداثة.

وحياة الدكتور غالى بعيدة كل البعد عن النمطية والتقليدية. إن فيها المفاجأة والإبهار والطرافة.. فهو لم ينشأ مسلم الديانة ومع ذلك حفظ القرآن فى السابعة من عمره على يد شيخ أزهرى! وهو «دكتور» فى الفكر، ويحمل فى الوقت نفسه دبلومَ المدرسة الزراعية المتوسطة!! وهو رجل من أهل الكفاح السياسى والعقلى ومع ذلك كان فى طفولته «يسرق» بعض ما يسرق الأطفال.

إننا حين «ننبش» فى ذاكرة الناقد الكبير د. غالى شكرى فسنجد أنفسنا أمام منجم ثرى بالأبعاد الإنسانية والأدبية والطرب وها نحن أولاء نبدأ معه - جلسات صداقة وصراحة وكشف - لتقدم لنا ذاكرته نفسها.

أقول له:

•• بدأت حياتك العلمية بالقرآن.. أكان ذلك توجيهًا من المنزل أم هو دافع شخصى؟!

فقال:

• تربيت فى طفولتى بالمدرسة الإنجليزية بمدينة منوف - محافظة المنوفية التى ولدت بها، بالرغم من أن أبى وأمى من صعيد مصر. فى هذه المدرسة - التى تعلمت فيها المواد كلها باللغة الإنجليزية - كان الأستاذ المصرى الوحيد هو (الشيخ حافظ) وقد نسيت بقية اسمه!! هو الذى درَّسَ لنا اللغة العربية بفروعها المختلفة: الإنشاء والإملاء والمحفوظات.

وذات يوم ذهب إلى أبى وقال له: أريد أن أقدم لابنك غالى درسًا خصوصيًا فى اللغة العربية. فانزعج أبى انزعاجًا شديدًا ظنًا منه أننى ضعيف فى هذه اللغة. فقال له الشيخ حافظ: كلا.. إن العكس هو الصحيح. فابنك متميز فى اللغة العربية، وبالتالى فأنا أريد أن ألقى عليه دروسًا مجانية فيها. وافق أبى وذهبت لأدرس على الشيخ

حافظ اللغة العربية فى بيته الذى كان قريبًا من بيتنا، ومن بيت صبى فى مثل سنى سوف يصبح فيما بعد (مكرم محمد أحمد) الذى كان تلميذًا بمدرسة المساعى المشكورة وكان أيضًا زميل دراستى (جورج البهجورى).

•• هو صعيدى من بهجورة..

• أبوه صعيدى.. واسمه كاملا (جورج عبد المسيح بشاى) أما بهجورة هذه فبلد فى الصعيد، المهم أننى ذهبت إلى الشيخ حافظ، وكان أول كتاب يفتحه أمامى هو (المصحف) وعلى يديه حفظت القرآن كاملاً بالتجويد، وطبيعى أنه قد استعصى على عقلى فهم معظم الآيات بحكم سنى الصغيرة. ولكن رويدًا رويدًا بمجرد أن درست القرآن بالعمق الذى درَّسه لى الشيخ حافظ نَمَوْتُ عقليًا، وبدأ يدرِّس لى كتابا كان مقررًا على المدارس الأميرية اسمه (المنتخب فى أدب العرب)..

•• لأحمد أمين وآخرين..

• تمام.. وكنت حينها تقريبا فى السابعة، وكان حفظى تامًا للقرآن.

•• أى مثل بعض أطفال المسلمين.. وربما تفوقتَ عليهم.

• نعم.. وحينما كنت أزور مكرم محمد أحمد فى الكُتَّاب كنت أتفوق على التلامذة الآخرين، لكن مكرم له دور مهم فى حياتى: هو أنه كان متقنًا للغة العربية، وأنا أتقن الإنجليزية، فكان يشجعنى على

ترجمة بعض المجلات التى أحبها فى المدرسة.. فترجمت قصصًا كثيرة ومقالات، وهو يراجع تلك الترجمة ويصحح الأخطاء اللغوية والنحوية، وكنا مازلنا أطفالاً.

●● اهو فى نفس السن؟!

● ربما كان يسبقنى بسنة، وفى المناسبات الوطنية كان الطلاب فى المدارس الأميرية يأتون إلى مدرستنا ويلقون عليها بالحجارة حتى نخرج نحن معهم فى المظاهرات، وفى أحد الأيام طلب منى مكرم أن أحضر احتفالا بالمولد النبوى بمدرسة المساعى المشكورة، وهناك طلب منى أستاذ أن ألقى كلمة، وإذا بى أخطب خطابة أدهشت الناس فهذه البلاغة كلها تنساب من صبى. وكنت حينها أنتفع جدًا بمكرم عبيد وخطبه.

●● أكان يحفظ القرآن؟.

● طبعا.. لكنى لم أكن أعرفه، ولم أره مطلقًا. فكنت أسمع خطبه، وأحفظ بعضها، وأذكر منها قوله: اللهم اجعلنا نصارى لك، وللوطن مسلمين.. اللهم اجعلنا مسلمين لك، وللوطن أنصارا.. وأردد أنا هذا الكلام فتلتهب الأكف بالتصفيق.

وفى أحد الأيام حملنى تلامذة (المساعى المشكورة) وغيرها على الأكتاف فى إحدى المظاهرات التى لا أذكر مناسبتها الآن.

●● كم كان عمرك حينها؟!

• ربما فى الثانية عشرة من عمرى.. وقد حصلت على شهادة المدرسة الإنجليزية التى تعادل الابتدائية فى المدارس الرسمية. وأكملت طبعا بعدها. كان هذا عام ١٩٤٧، والإنجليز قد كسبوا الحرب العالمية الثانية؛ وبدأت الحروب العربية الإسرائيلية، وأذكر أن تفتح وعيى السياسى فى ذلك الوقت المبكر كان نتيجة حرب فلسطين، كانت الشرارة الأولى، ذلك رغم أن المدرسة الإنجليزية كانت تشبه السجن - بالمعنى الجميل - بمجرد دخولها.. هى سجن للثقافة الإنجلوسكسونية: الجغرافيا، التاريخ، العلوم.. كلها بالإنجليزية.. أكثر من هذا أنهم كانوا فى أثناء الحرب، كل يوم أربعاء يرسلون إلينا ضابطًا إنجليزيًا، أو أستاذًا بإحدى جامعاتها ليحاضرنا عن الحرب ويعرضون لنا فيلما سينمائيًا إنجليزيا عن الحرب أو غيرها.. ومازال مطبوعًا فى ذهنى كأنى أراه الآن صورة العلم المصرى والعلم البريطانى وصورة الملك فاروق والملك جورج الخامس متجاورتين.

لقد أفدت جدًا من هذه المدرسة بالانفتاح المبكر على الثقافة الغربية.. وبدأت أكتب قصة، وتمثيلية، وشعرًا، وليس مجرد الترجمة، هى خواطر المراهقة، وكان مكرم محمد يصححها لى، إلى أن حصلت على ما يعادل (البكالوريا) من المدرسة الانجليزية، ولم أكن أستطيع السفر إلى إنجلترا، لأننى من أسرة متواضعة، لكن فكرة العلم كانت مسيطرة على أبى وأمى، فعلمُونا جميعًا: أنا

وإخوتى فدرست بالمراسلة فى الجامعات الإنجليزية، أما مكرم فالتحق بكلية الآداب - قسم فلسفة. وكان يقيم بالقاهرة، وحينما يعود فى نهاية العام كان يعطينى كتبه الدراسية، فأدرسها ويمتحننى فيما يقدم لى نفس الأسئلة التى امتُحن فيها هو بالجامعة.. كل هذا سنة بسنة، وحينما حصل على الليسانس عام ١٩٥٦ كنت قد حصَّلتُ جميع مواد الليسانس، بحيث لو تقدمت للامتحان فى الفلسفة لاجتزته وقد أحببت الفلسفة.. لكن موهبتى الأساسية كانت الأدب.

•• لِمَ لَمْ تلتحق بالجامعة المصرية حينذاك؟!

• شهادة المدرسة الإنجليزية - رغم أنها تعادل الثانوية العامة - لم تكن تُلحقنى بالجامعة المصرية. وإنما كان أبى مصرًا على أن اتخرج مهندسًا زراعيًا.. ولا يتسنى لى هذا بالشهادة الإنجليزية، فالتحقت (بمدرسة الزراعة) الثانوية.. ولذا تلاحظ أن خطى الدراسى كان شديد الارتباك: فدرست ثلاث سنوات الزراعة فى المدرسة الثانوية، ولم أفد منها شيئًا. فعلت هذا، وحصلت على الدبلوم بتفوق لأجل أبى. وأكملت بالشهادة الإنجليزية دراستى بالمراسلة فى إحدى الجامعات الإنجليزية، وفى الوقت نفسه التحقت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة لدراسة الصحافة.. وحصلت على دبلوم الصحافة، ودبلوم الأدب الانجليزى فى وقت واحد ثم درست اللغة الفرنسية بالمركز الثقافى الفرنسى بالمنيرة بالقاهرة أربع سنوات.

•• أتعادل شهادتك فيها الليسانس؟؟

• نعم.. تعادله، وكنت حينها حاملاً الليسانس، أو ما يسمونه (B.A) من جامعة لندن، وأثناء دراستى للغة الفرنسية تعرفت بالبروفسور جاك بيرك، وكان يزور مصر، وهو رئيس قسم الدراسات العربية الإسلامية فى جامعة فرنسية بباريس لا تقل شهرة عن السوربون، اسمها (المعهد العالى للدراسات الاجتماعية).. رحمه الله!!.. وقد حصلت على دبلوم هذا المعهد الذى يعادل الماجستير، ولذا فحينما سافرت إلى باريس أعددت الدكتوراه مباشرة، واتجهت إلى علم الاجتماع الذى هو أقرب إلى الفلسفة والأدب، والمسمى (علم الاجتماع الثقافى).. وحصلت على الدكتوراه منذ حوالى عشرين عامًا، كان موضوعها (النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث.. دراسة نقدية مقارنة بين عصرى محمد على وجمال عبد الناصر).

•• لو عدنا مرة أخرى إلى حكايتك مع القرآن.. هل اعترضت أسرتك على حفظك له؟!!

• لا.. لم تعترض، وقد لاحظوا أننى مهتم باللغة العربية اهتمامًا زائدا ولم يكن هنالك تلميذ بالمدرسة الإنجليزية يهتم بها.. وأحرص على شراء الكتب من سور الأزبكية بالقاهرة.. ولم يكن هذا الاهتمام على حساب الإنجليزية.

وبعد الشيخ حافظ ـ فى المرحلة الثانوية ـ تعرفت بمدرس اسمه محمود الفيشاوى، ومازال حيًا إلى اليوم بالمنوفية، وقد فوجئت

مؤخرًا برسالة منه أتتنى منذ حوالى عام، فاجتاحنى فرح غامر.. لأن هذا الرجل هو الذى وضع يدى على الأدب المصرى الحديث، أول من أعطانى رواية لنجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وإحسان عبد القدوس.. وعرَّفنى بأن هناك من المصريين من يكتبون كالروائيين الإنجليز الذين أقرأ لهم.. كانت أول مرة أعرف فيها أن هناك من يكتب مثل ديكنز، وبلزاك، وزولا باللغة العربية وأنا مدين له طوال العمر بهذا.

وحين اكتشف الفيشاوى أن لدى موهبة حقيقية فى الكتابة باللغة العربية، وجهنى إلى إصدار كتاب أنا وزملائى، فأصدرنا على نفقتنا كتابًا على نسق سلسلة (كتابى) التى كان يصدرها حلمى مراد.. وسميناها (صور الأدب) وتحتها كتبنا (نحو أدب رفيع لحياة أسمى)!! ولا أملك منه نسخًا حاليًا، لكنه مازال منطبعًا فى ذاكرتى. وقد قرأ لى الأستاذ محمود الفيشاوى كل كلمة كتبتها حتى تلك السن عام ١٩٥٤.

فى ذلك الوقت كنت أعرف المجلات العربية، فتابعت مجلة (الرسالة الجديدة) التى يرأس تحريرها - حينذاك - يوسف السباعى، وكنت قد قرأت له قبلها. وفى أحد أعدادها طالعت قصيدة لشاعر كتب تحت اسمه عنوانه، وهو (تلا - منوفية).. واسمها (بكاء للأبد) واسم ذلك الشاعر الجديد: (أحمد عبد المعطى حجازى).. فقرأتها وأعجبت بها، وكتبت عنها مقالة نقدية،

وأرسلتها، ففوجئت بنشرها فى العدد التالى مباشرة.. كانت تلك أول قصيدة لحجازى تنشر بمجلة معترف بها، وكان أيضًا أول مقال لى ينشر.

•• رواد زمان: جيل لطفى السيد، طه حسين، سلامة موسى، العقاد، أمين الخولى كانوا يحتضنون الناشئة من الموهوبين.. هل نلت حظًا من اهتمام بعضهم؟! من تراه أقرب إلى نفسك منهم؟!.

• سلامة موسى.. لقد تعرفت - أول وصولى للقاهرة - على مجموعة أدباء يصدرون مجلة اسمها (قصتى) رئيس تحريرها أديب مقعد اسمه (صبحى الجيار).. كنت فيها أنا وأحمد بهجت وفتحى سرور وصبرى موسى ومحمد عبد الحميد وكمال مرسى المحامى.. كنا شبابًا، وكنت أصغرهم، لم أكن تجاوزت التاسعة عشرة.. ودورى فيها هو الترجمة والنقد الأدبى، أى أساعد الجيار فى اختيار القصص للنشر من خلال ما يرد إليه، وكان أحمد بهجت يقدم إلينا قصصًا يقول إنه ترجمها لتشيكوف أو موباسان وغيرهما من القُصَّاص العالميين، وكنا ننشرها على هذا الأساس، وبعد توقف المجلة بسنوات اكتشفنا أن أحمد بهجت مؤلف هذه القصص.. وكان يخشى أن نستهين به لو ذكر أنها من إبداعه.. فكتب عليها أسماء عالمية!!، وهو كاتب قصة من طراز رفيع. وأنا أضن به على الصحافة التى أكلته أكلاً، وابتعد عن مجال موهبته الحقيقى. وكان بهجت من الممكن أن يصبح - بمنتهى الإحساس بالمسئولية أؤكد - يصبح يوسف إدريس آخر.

فى سنة ١٩٥٦ شاءت الظروف أن يقدمنى سلامة موسى - وكان يعمل بالأخبار - لموسى صبرى الذى كان رئيسًا لتحرير مجلة (الجيل) فأعمل بها .. وفى نفس الشهر بعث رشاد رشدى بأحمد بهجت إلى موسى صبرى فعمل فى المجلة نفسها، فجمعتنا (الجيل) فى شهر واحد. وحين نشرت موضوعًا أعجب مصطفى أمين - أقصد مصطفى بيه!! - اتصل بى تليفونيًا، وكنت فى العشرين من عمرى، لأذهب لمكتبه. وأثنى على موضوعى، وقدم إلىَّ خمسة جنيهات تشجيعًا، فكانت مكافأة معنوية عظيمة، إضافة إلى قيمتها المادية العالية حينذاك!!.

كنا فى مؤسسة أخبار اليوم حينها مجموعة كبيرة من الأصدقاء الموهوبين الذين أصبحوا فيما بعد نجومًا، منهم: أمينة شفيق، وزوجها - فيما بعد - عبد المنعم القصاص، وصافيناز كاظم.

فى سنة ١٩٥٣ أهدانى أحمد بهجت كتابًا اسمه (تربية سلامة موسى).. هذا الكتاب هو الذى صنع انقلابًا فى حياتى: الجرأة، والشجاعة الأدبية، والسيرة الذاتية المبهرة.. فتعرفت على سلامة موسى، ولم أفارقه حتى مات سنة ١٩٥٨، ومن المفارقات التى أذكرها لأول مرة، أن يموت فى يوم واحد مع أبى!!

●● اى فقدت الأب الروحى والأب الحقيقى!!

● نعم.. وبعد أن قرأت كل ما كتب أراه صاحب الفضل الشخصى والفكرى على غالى شكرى.

●● والآخرون: طه حسين والعقاد ومندور....

● طه حسين تعرفت عليه.. لكن علاقتي به لم تكن على مستوى علاقتي بسلامة موسى. وكانت بداية تعارفي به واقعة طريفة: في عام ١٩٦٢ صدر لي كتاب وأنا في السجن اسمه (أزمة الجنس في القصة العربية) وكان موضوعًا يطرق لأول مرة: كيف عالج الروائيون العرب العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة.. تحدثت فيه عن نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ويحيى حقي، وسهيل إدريس، وكوليت خوري، وليلى بعلبكي، وصوفي عبد الله.. فنصحني صديقي الحميم الراحل أنور المعداوي بتقديم هذا الكتاب لنيل جائزة الدولة التشجيعية؛ فقدمته.. وكان يعرفني لويس عوض الذي اتصل به طه حسين، وقال له أتعرف أحدًا اسمه غالي شكري؟!. فرد لويس بالإيجاب، فطلب منه الدكتور طه أن يصحبني لزيارته، وكان رئيسًا للجنة هذه الجائزة بالمجلس الأعلى للآداب والفنون - كما كان يسمى حينها - فذهبت إليه مع د. لويس. وفي البداية لا أدري لماذا تصور أنني لبناني.

●● ربما بسبب الاسم!!

● الاسم صعيدي!! وقد قلت له إن بلدي بجوار بلدك!! فقال لي: أنت وضعت كتابًا مهمًا جدًا، وهو فتح في النقد العربي.. كم سنك قلت له: ٢٧ عامًا.. قال: أستاذك (صقر خفاجة) متقدم لنفس الجائزة بكتاب عن النقد اليوناني، فلو كنت مكاني، ماذا تفعل؟! قلت له:

أعطيها لصقر خفاجة بلا تردد. فقال: كتابك هذا، لأنه جيد جداً، وأنا محرج بسبب التقريرين اللذين كتبتهما سهير القلماوى ومحمد مندور فى صف كتابك بأنه الجدير بالجائزة، وصقر خفاجة ينبغى أن يحصل عليها فهناك حل، هو أن نعتبرك لم تتقدم هذا العام للجائزة؛ وتعيد تقديم الكتاب العام المقبل لتنال الجائزة.. فقلت له: سأنفذ ما أمر به العميد.. ولم أتقدم مرة أخرى.

•• لماذا؟!

• وجدت طبيعتى لا تسمح لى بالتقدم مرتين بعمل واحد. ثم كبرت ولم يعد (التشجيع) مناسبًا لى.

•• شهادة الدكتور طه حسين أقيم من الجائزة.

• نعم.. وإن كاننت بينى وبينه.. غير معلنة.

•• الطفولة فى الريف ليست هى طفولة المدينة.. هى فى الريف تعنى عرى القدمين والجسد، وتعنى العمل المبكر فى الحقول، وتعنى الجوع.. ماذا تتذكر من أيام الطفولة تلك، وكيف تراها الآن بالريف والمدينة ؟!

• منوف، التى ولدت بها وتربيت ليست ريفًا، هى مدينة. لكن الأرياف كانت حولنا. وأذكر باستمتاع جلساتى أنا ومكرم محمد أحمد عند أشجار التوت وأشجار السنط. كنت أصعد الشجر وأجمع الصمغ، وكنا نسرق (الفول الحراتى)، والجعضيض، والخضروات، ونأكلها ونحن نقرأ، ونذاكر، ونتحدث..

أذكر جلساتى الطويلة مع جورج البهجورى الذى كان كسولاً جدًا فى المدرسة. كان يترك الدروس ويرسم صورًا تضحكنا..يرسم المدرسين والتلامذة بطريقة ساخرة.. وكان يفرض علينا ضريبة بأن يعطيه كل واحد منا ورقة بيضاء، ويجمع هو هذا الورق ليرسم فيه؛ ولا يهتم بالتحصيل المدرسى، فتأخر دراسيًا، إنه يكبرنى بحوالى خمس سنوات لكنه كان يرافقنى دراسيا.

بالنسبة للجنس تعرفت على المرأة فى وقت مبكر جدًا..

كان عمرى ١٢ عامًا..

وكانت البداية مع الشغالة فى منزلنا، وهى التى علمتنى!!

هل سينشر هذا الكلام؟!!

•• كما تحب!!

• أحب أن ينشر!!

•• إذن سننشره ونرسل نسخة من الكتاب إلى حرمكم بالمنزل!!

• هى تعرف كل شىء!!

•• على المستوى الاقتصادى والاجتماعى، طفل الريف ليس هو طفل المدينة.. هذا ما كنت أقصده من سؤالى السابق.

• لم أكن أعيش فى الريف بالمعنى الكامل لأدرك هذه الظاهرة.. كنت فى مدينة ليست فيها مظاهر الريف كاملة.. ولم تكن فى الوقت نفسه

مدينة كبرى.. هى مزيج من هذا وذاك، أى مدينة ريفية.. ففى مسألة الحب مثلاً كنت أعرف شيئًا عن العاطفة من خلال مصادر عديدة: زميلتى فى المدرسة، بنت الجيران.. المحرمات كانت خفيفة وقليلة جدًا وكانت منوف بؤرة حضارية فى وسط الريف: فيها مدارس إنجليزية ومدارس عامة، وصيدليات، ومستشفيات، ومعاهد.. وفيها خمارات كبديل للملاهى بالمدن الكبرى. وفيها نسبة عالية جدًا من المتعلمين، وملاعب رياضية، ودارًا سينما، وتجارة مزدهرة.. كل هذا كان يجعلها بعيدة بعض الشىء عن قيم الريف.

•• هذه الحياة الطفولية الطريفة التى عشتها بين الطبيعة: الشجر والترع والضفادع والعصافير.. ألا تحب أن توفرها لأبنائك حاليًا؟

• لا.. إن أبنائى تربوا تربية عكس هذه تمامًا.. فى فرنسا، وفى باريس على وجه التحديد أقاموا عشرين عامًا.. وفى القاهرة كانوا يدرسون فى مدرسة الليسيه، وبالتالى لا يعرفون أى شىء عن الريف.

ابنتى (هدى) سافرت معى مرة واحدة لمنوف - كنوع من التذكر - فعادت بإحدى عينيها متورمة ومريضة. فلم تحمل من منوف غير هذه الذكرى.. إنهم أبناء المدينة: القاهرة ثم باريس.

•• أيام الغربة خارج مصر فى السبعينيات وبعدها كان لها طعم خاص، ربما كان مرًا، وربما تخللته بعض الحلاوة: حلاوة الكفاح على وجه التحديد.. كيف بدأت حكايتك مع تلك الأيام وكيف قادتك إلى أقطار عدة؟!

• لقد تغربت بمحض الصدفة: فى سنة ١٩٧٣ فصلت من عملى مع مائة وعشرين كاتبا، فيما يسمى (مذبحة الاتحاد الاشتراكى) فعلها أنور السادات، ووجدت نفسى بلا عمل، وكانت معى دعوة من الولايات المتحدة للمحاضرة هناك فى عدة جامعات لمدة ستة أشهر، وكان حينها الخروج من مصر يقتضى (تأشيرة) والحصول عليها صعب جدًا. لكن حصلت عليها بمساعدة بعض الأصدقاء الذين بقوا فى عملهم الصحفى. وذهبت للسفارة الأمريكية للحصول على تأشيرة دخول الولايات المتحدة، ففاجأتنى السفارة بأننى ممنوع من دخول أمريكا، وقدمت لهم دعوة الجامعة فلم يأخذوا بها.. ولم أرغب فى أن أخسر تأشيرة الخروج من مصر، فذهبت بها إلى بيروت.. وكان لى كتابان فى المطبعة، فرأيت أن أشرف على عملية الطبع، وأحصل على ثمنهما. وهناك عرض علىّ الإخوة اللبنانيون أن أقيم معهم حتى تنتهى أزمتنا مع السادات بدل التعطل فى مصر، فأقمت هناك عدة أشهر أعمل فى بعض الصحف حتى شهر أكتوبر ووقوع الحرب.

وأتذكر حينها أننى كنت فى سينما اسمها (سارولا) تعرض فيلم (العصفور) ليوسف شاهين. وهو يتناول هزيمة ١٩٦٧ وكان سوداويًا، وجوُّه غم فى غم!!.. وإذا بصديقى بكر الشرقاوى الذى كان مقيمًا قبلى فى بيروت يقبل نحوى لاهثًا، ويقول: الحرب قامت، الحرب قامت!!. فكانت لحظة فذة مبهرة، وكان السادات قد أعاد

الكتاب والصحفيين إلى أعمالهم قبل الحرب بأسبوع، وأنا لا أعرف، وكنت قد تعاقدت مع بعض الصحف، فأرسلت للأستاذ محمد حسنين هيكل بهذا الشأن فقدر ظروفي، ولم يقطع مرتبي طوال فترة سفرى على الإطلاق.

وكان علىَّ أن أسافر إلى باريس لمناقشة الدكتوراه وعرضتْ علىَّ الجامعة أن أعمل بها.. واستمرت حياتى بباريس بعد ثلاث سنوات ونصف سنة فى لبنان، وأقمت فى فرنسا اثنتى عشرة سنة ونصفًا للتدريس والكتابة.

وقد أصدرت كتابًا بالفرنسية فى باريس سنة ١٩٧٨، ونشرت ترجمته بالعربية والإنجليزية، واسمه (الثورة المضادة فى مصر) فاعتبر الرئيس السادات هذا الكتاب ضده، ووقع تصرف استثنائى: وهو أن السفارة المصرية هناك سحبت جواز سفرى حينما ذهبت إليها لتجديده، وظل الجواز مسحوبًا حتى عام ١٩٨٥ حينما حكمت لى محكمة مصرية باسترداد جواز سفرى. بعدها بأسبوع كنت فى القاهرة، وظللت عامين فى باريس لتصفية أعمالى، وعدت إلى عملى بالأهرام.

- الصحافة العربية التى تصدر خارج الوطن: فى أوربا وأمريكا.. كنت متصلاً ببعضها.. كيف تقيِّمها فى توجهاتها العامة، ونظرتها لقضايانا داخل الوطن.. هل تتفوق على ما يصدر من صحف عربية فى الداخل بحكم إمتلاكها للتكنولوجيا والحرية؟!!

•كان المفروض أن ننشئ صحافة عربية فى الغرب منذ زمن طويل. فقد كان لنا صحافة عربية هناك منذ أواخر القرن التاسع عشر.. والذين أسسوا الصحافة العربية فى باريس هم اللبنانيون، بعد أن خربت بلادهم بالحرب، فأصبحت باريس أو لندن أو روما ملجأ لهم.

وهذه الصحف أكثر تحررًا من الصحافة المحلية، بالإضافة للحداثة فى الطباعة والتحرير.. فهى لا يمكن أن تتنازل عن المستوى الأوربى فى الطباعة والنشر والتحرير. وقد نجحت لهذه الأسباب.

لكنها ليست صحافة منزهة. فالأنظمة العربية كانت فى صراع مع بعضها.. وكانت الصحافة تستفيد من هذا بدفاع كل صحيفة عن نظام بعينه نظير ما تتلقاه من دعم، وهذا الدعم لا يترك لها الحرية كما نتصور. فهى حينما تمالئ نظامًا معينًا تصبح ضد النظام الآخر.. وبالتالى فهى على مستوى المعلومة والخبر تكذب وتزيف وتختلق فى أحيان كثيرة لخدمة النظام الذى يدعم. وهذه عورة فى الصحافة التى أنشئت فى منتصف السبعينيات خارج الوطن. وبقيت حتى أواخر الثمانينيات، حين لم يعد النفط قادرًا على إنقاذ هذه الصحافة، وحين انتهت الصراعات بين بعض الأنظمة العربية، ومنذ ذلك الوقت لم يعد قادرًا على الاستمرار إلا الصحافة الجيدة القائمة بنفسها، وخاصة فى لندن.. أما فى باريس فقد انتهت.

•••

• ذكريات خضراء

ذكريات خضراء

يحمل الدكتور غالى شكرى براءة طفل، وقلب عاشق، وعقل مفكر، ووجدان شاعر.. وكل هذا مذاب فى بوتقة من الحس القومى الصادق الواعى المستنير. فإذا تحدث إليك ترى فيه نبضات: محمد، وحسنين، وفيصل، وجرجس لكنك لن ترى فيه أبدًا شخصية (كوهين) ولا رائحته، ولا لونه الرمادى.. وأبرز لوحة فى عقل غالى شكرى هى خريطة أرض العروبة ممتدة من الخليج إلى المحيط، ومن البحر المتوسط إلى أعماق إفريقيا.

لا يعنى هذا التمازج شيئًا من الخلط والتشويش، بل يعنى صفاء الشخصية العربية، وتعدد منابعها، وامتداد جذورها فى أطلس

التـاريخ البـشـرى، وبسـوق فـروعـهـا إلـى أعلى عليـين من الآمـال والطمـوحـات التى لم تمتْ يومًـا فى نفس هـذا الأديب.. إنه نمـوذج لملخص هويتنا التى حملها مفكرون سابقون ولاحقون فنقلوها من حالة (الحلم) إلى واقع راهنٍ نابض على الأوراق، بل وسابحٍ بيننا فى كل الدروب والآفـاق. فـعلى أيدى هؤلاء المـفكرين أصـبـحت للعـروبة مـلامحها الدقيقة الواضحة فى هذا العصر الحديث بعد فترة انكفاء على الذات الإقليمية لكل قطر عربى على حدة فى مقاومة الاستعمار، وفى محاولة لتخليص الأصابع من ضماداتها قبل مدِّ الأيدى للتشابك.

هذا الثرى العربى المترامى الأنحاء، وهذه الهموم العربية المنبثقة فى كل بقعة، وهذه القلوب التى تهفو إلى التوحد، كلها نابضة حية فى فكر غالى شكرى المخطوط والمنشور والمنطوق وحتى المحفوظ فى الذاكرة.. فـهو إذا أدلى إليك بنفسه بدخائله: فليس مصريا ولا مغربيا ولا شـاميا ولا إمـاراتياً فقط، بل هو كل هذا.. وقبله ومعه هو عربى.. فى آفاقه وتوجهاته.. ولن تعرف - حين يتكلم - ما إذا كان مسلمًا أو مسيحيًا أو علمانيًا، إنما تراه عربيًا مع هذا، وقبل هذا، وبعد هذا.

ووسيلتك لمعرفة الدكتور غالى طفولة قلبه، وبساطة طبعه. فإذا شـاء أن يكشف لك نفسه، فلن تجد فيه ذرة قد تغطت، ولا نبضة قد غـمـضت. لكنه يحمل طفولة مـقننة يحكمـها تفكيـر منظم وتدقـيق. وملخص مـا تخرج به منه - إذا تحدث عن طفولته الواقعيـة تلك، أنه سعيد بها، مرح فى عرضها. وكأنه وهو يذكرها مازال يلهو بحصانه الخشبى وبقطته، وفراشته: الحقلية والبشرية!!

قلت له:

●● قاعدة لا يشذ عنها غير نجيب محفوظ تقريبا - وأنت واحد ممن يؤكدونها - وهي أن أرض الريف ولادة للأدباء.. من خلال تاريخك الطفولي كيف ترى عوامل الإعداد التلقائية في داخل الريف للأديب؟؟

قال:

● ليست هنالك صياغة مطلقة للريف.. أي أن الريف ليس ثابتًا وواحدًا في كل زمان ومكان.. هناك ريف معين في فترة معينة.

البلد الذي نشأتُ به - وهو منوف - لا يعد ريفًا بالمعنى الكامل لطبيعة الريف.. كانت مدينة محاطة بالأرياف. ومركزًا تجاريًا.

●● أي مركز مدني بداخل الريف، أو مدينة ريفية.

● نعم.. مدينة محاطة بالريف.. ولها خصوصية أن المدارس أنشئت فيها منذ وقت مبكر جدًا، وحتى المدارس الأجنبية، وكذلك كان بها مجموعة كبيرة من السياسيين، بل عائلات سياسية بأكملها.. أعطوا لمناخ المدينة تلك روح الثقافة.

●● مثل مَنْ تلك العائلات؟

● مثل عائلة الشقنقيري وعائلة أبو علم التي ينتمي إليها صبري أبو علم سكرتير عام (الوفد) حينذاك، وعائلة البدراوي، وعائلة عبد الغفار، وعائلة شقير التي ينتسب لها د. لبيب شقير رئيس مجلس الأمة الأسبق.

وكان بها حياة حزبية.. فهنالك السعديون الذين يمثلهم عائلة الشقنقيرى، والوفديون كذلك.. بالإضافة للإرسالية الانجليزية التى كانت موجودة حينها، وأنشئت مدارس وكنيسة إنجيلية بمنوف وكانت كنيسة متحضرة يؤمها المسلمون والمسيحيون فى المناسبات الثقافية، كعرض الأفلام.. وبالمناسبة مدينة منوف كانت من المدن النادرة فى الريف المصرى التى بها دار سينما، وأحيانًا كانت تضم دارين اثنتين.

وكان الإنجليز يعرضون لنا أفلامـا، ويقيمون حولها ندوات ومناقشات فخلق هذا الجو كله بيئة ثقافية ثرية زاخرة بالحياة.

وهذا هو الاستثناء من الريف المصرى، ولا أظن ذلك الجو قد توافر لسائر المدن الريفية. وهناك ظاهرة أخرى طريفة: أن عائلة الإسناوى - تجار القماش - كان لابد من عمل أحدهم مراسلاً لجريدة الأهرام أو الأخبار، أى صحفيًا.. وغير هؤلاء كنا نجد مراسلين دائمين لبعض الصحف القاهرية من بعض العائلات هناك.. وهذه علامة ثقافة أكثر منها علامة صحافة.. فبعضهم ربما كان يكتب شعرًا أو قصة أو مقالة.. فأنا مثلا كنت مراسل جريدة (الاشتراكية)، وصاحبها أحمد حسين عام ١٩٥٢ تقريباً وكنت حينها قد أنهيت الدراسة الثانوية، وأقيم بالقاهرة، لكنى أمارس عملى كمراسل لها من منوف.

وقد رأيت عادل حسين لأول مرة فى حياتى، وهو فى مرحلة مبكرة وعمره، حوالى ستة عشر عامًا، وكان يخطب باسم الحزب الاشتراكى

- الذى تحول عن «مصر الفتاة» - كان يخطب بمنوف فى بعض البيوت التى تناصر حزبه، واجتمع حوله بعض الشباب - وأنا منهم - وتحدث فينا: وكان خطيبًا فعلاً.

•• أكان أفضل منه خطيبًا هذا الزمن؟!

• أجاد الخطابة حقًا.. وأنا أركز على مسألة الخطابة هذه لأن أول تجربة جماهيرية لى كانت أننى خطبت فى مدرسة (المساعى المشكورة) بمناسبة المولد النبوى، وقد اصطحبنى إليها مكرم محمد أحمد..

•• أتذكر شيئًا من تلك الخطبة؟!

•ما أتذكره منها هو أنها قيلت فى مناسبة حبس أحمد حسين، وكنا جميعًا نكره الملك، فسقتُ خطبتى هذه فى الهجوم عليه، وعلى حاشيته وفساده وتردى الأحوال فى أيامه.

•• ألا تتذكر عبارات بعينها منها؟!

•لا.. طبعا..

•• نستطيع أن نقول إذن إن هذا الجو كان قادرًا على إنجاب أدباء: بعض الوعى السياسى، بعض الوعى الثقافى.. لكن الملاحظ أن هذا الوعى كان متوافرًا فى المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية أكثر من المدن الريفية. ومع ذلك لم تخرِّج هذه المدن الكبرى أدباء فى قامة العقاد والمنفلوطى وطه حسين وأمين الخولى والزيات

وسلامة موسى ومصطفى صادق الرافعى. إذن هناك عوامل أخرى غير الوعى السياسى والثقافى ينفرد بها الريف.

• القاهرة وعاء لابد منه..

•• لا أنفى أهميتها.. لكنها أداة استيعاب وصقل للأدباء فقط، لكنها لا تنجبهم.. فأنت مثلاً ولدت هناك - فى الريف - وتكونت نفسيًا ووجدانيا..

• نعم.. أنا تكونت هناك.. وأرى مرحلة منوف مهمة جدًا فى حياتى لقد أسهمت فى إعدادى مساهمة أساسية: سواء من ناحية التدريب على القراءة أو التدريب على الكتابة، فكان التدريب على القراءة بوسيلة المدرسة الإنجليزية التى درست بها، ثم باعة الصحف الذين كانوا يحملون إلينا الكتب الطازجة القادمة من القاهرة، لقد وفرت لنا مواطن النشأة الأولى الخامة الأساسية لانطلاقنا، ثم تركتنا لاجتهاداتنا الفردية وموهبة كلٍّ منا.

•• إذا ضيقنا الدائرة الريفية لنقصرها على الصعيد الذى تعود جذورك الأولى إليه.. يمتاز هذا الإقليم من أقاليم مصر بانطلاق شدو البلابل البشرية فيه.. أهى الشكوى من جدب الطبيعة والحياة أم تركز القبائل العربية هناك، أم وراثة أمجاد الفراعنة والعرب؟! ماذا لو عدت بالذاكرة إلى الوراء - حيث أسرتك الصعيدية - للإجابة عن هذه التساؤلات؟.

• للأسف الشديد إننى لا أعرف الصعيد!! على الرغم من أن أبى وأمى من (صعيد الصعيد): من جرجا.. وأقصى مدينة زرتها فى الطفولة هى بنى سويف لأن عمتى كانت تقيم فيها. وعمتى هذه منهل مهم جدًا لتزويدى بالخيال والحكايا.. فقد كانت تحكى لى قصصًا وحواديت كثيرة جدًا، ولست أدرى مدى الواقع والخرافة فيها. وكنت أستمع إليها بانتباه.

وعمتى هذه هى التى ربطتنى - نظريا - بأسرتى فى الصعيد، أكثر مما علمنى أبى فى هذا المجال، وما عرفته أن كلاً من أبى وأمى نشأ فى (عائلة سلطة).. فجداى لأبى وأمى كانا عمدتين. أبى من قرية اسمها (بيت داود) وأمى من قرية اسمها (الرقاقنة) وأبوهما كانا عمدتى القريتين وكان من هاتين العائلتين أيضًا شيخ البلد وشيخ الخفر. أى السلطة القروية.

لكنى لم أرَ الصعيد - كما ذكرت - مباشرة. وقد علمت - أثناء وجودى بفرنسا - أن ابن عمتى تلك باع بيت أبى وأمى فى القرية.. وقد كان ذلك البيت (دوَّارًا) كبيرًا.. وتمثلت علاقتى به فى الطفولة والصبا أن أجوالاً من التمر كانت تأتينى من نخل ذلك الدوار. وكان يرد إلينا أيضًا منه عدقصناديق من زجاجات العرق الذى يعدونه هناك، وكانت تلك أول خمر شربتها.

•• أكان يباح للأطفال شرب (العرق) هذا؟!

• كنت أشرب.. وأبى أول من أعطانى الكأس الأولى..

•• أكان يباح لكل أطفال ذلك الزمان شرب العرق مثلك؟!

• لا أستطيع التحديد، ما إذا كان زملائى يعرفون الخمر أم لا فى تلك السن المبكرة.. وقد جاءتنى الكأس الأولي من أبى، ومن خمرة (برووم) واستطعمته جداً، ولم ينتبنى سكر ولا دوخة!!

•• ألم يخشَ عليك أبوك الإدمان فى سنك الصغيرة؟!

• لا.. إننى لم أدمن حتى الآن.

•• أتعد تلك الحياة - بحريتها - هى البذرة الأولى لسعيك إلى التحرر ورفض القيود فى سائر أنماط الحياة بعد أن نضجتَ؟!

• البذرة الأولى هى الأرض الثرية بالحرية والخصوبة التى ولدت فيها.. ففى البيئة الاجتماعية فى منوف: مسلمين وأقباطًا كانت على درجة عالية من التحرر فى الملبس، والتردد على دور السينما والمسارح والحفلات فى الزفاف والختان وغيرهما.. وكانت الفتيات يلبسن متأنقات أزياءً حديثةً راقية.. ولم نعرف أية قيود من التعنت أو التزمت.

•• حين اصطدمت بعد ذلك بقيود المجتمع لم تحتملها.. وكانت تلك بدايات مفكر حر، أليس كذلك؟؟

• مسألة (المفكر الحر) هذه تعود إلى العقل لا إلى الملابسات الاجتماعية وأعتقد أنه كان لحسن حظى أننى تعلمت فى المدرسة الانجليزية.. ولست أدرى كيف كانت طرائق تعليم زملائى فى المدرسة الأميرية أو المساعى المشكورة.

فمثلاً فكرة أن أخطب فى المولد النبوى فكرة جريئة، سواء من الداعين أو من المدعو.. فالمدعو قبطى، وهذا معناه أنه لم تكن لدينا أية حساسيات دينية أو طائفية.

•• وكطفل، ألم تحس بها أبدًا؟!

• لا.. لم أكن أحس أننى مختلف إلا فى أثناء وجودى بالكنيسة.

هنا عقيدة أخرى، لكن ذلك بغير أى تصادم بالعقائد الأخرى.. لم أتعلم، ولم يوحِ إلىَّ أحد بهذا الصدام مع العقائد الأخرى..

منوف ضمت مدرستين انجليزيتين، وكنيسة قبطية مصرية، وكنيسة إنجليكانية أى إنجليزية، وخمارة، وسينما. كل هذا معناه أنها مدينة منفتحة.. خاصة أن الكنيسة الإنجليزية كانت تجلب لنا أفلامًا من إنجلترا، نشاهدها جميعًا بغض النظر عن الأديان والعقائد.

•• التمرد أحد سمات الأدباء.. أترى بذور ذلك التمرد كانت كلها فى طفولتك أم أنك كنت مسالمًا مطيعًا للأوامر الأبوية والنظام الأسرى ألم تمارس عبثًا طفوليًا ما؟!!

• مارست طبعًا.. والعبث الطفولى الذى كان أكثر أشكال التمرد هو الموقف من المرأة. والدى كان تاجر قماش، وقد تلقى ضربة مالية كبيرة فى أثناء الحرب العالمية الثانية: بأن تعرضت الباخرة التى تحمل له الأقمشة من أوربا، عن طريق تاجر جملة أرمنى كبير

بالإسكندرية اسمه (الخواجة أرتين)، وكان أبى يستورد منه، ويضع لديه كل ثقله المالى.. تعرضت الباخرة تلك لضربة عسكرية. فكانت نكسة قاصمة لأبى. لكنه لم يتوقف عن تجارة الملابس، بل مارسها فى منزله. وكانت الناس تتردد علينا لشراء احتياجاتها مما لدينا.

فى منزلنا ذلك كنت أعيش فى غرفة بجوار الباب الخارجى، شبه منفصلة عن بقية حجرات المنزل، ويتلوها ممر طويل حتى سائر الحجرات، وفى تلك الحجرة كنت أسهر كثيرًا لأقرأ كتب المدرسة وغيرها وقد تكونت لدىَّ عادة السهر منذ ذلك الزمان، ومازلت أمارس عملى حتى الآن ليلا.

ومن الزبائن الذين كانوا يترددون علينا لشراء الأقمشة أعجبتنى فتاة فى سنى تقريبًا، جاءت مع أمها. فتحدثت معها، وانسجمنا معًا ثم اتفقنا على اللقاء داخل منزلى، وتركت لها الباب مفتوحًا لتدخل بلا جلبة إلى حجرتى مباشرة.

•• جرأة طفولية طريفة!!

• أتذكرها جيدًا هذه القصة، وقد جاءت الفتاة فعلاً، ولشدة تعلقى بها أردت أن أدخل الهناءة إلى نفسها، بتقديم هدية لها، فالتفتُّ إلى أقرب (توب) قماش جميل، واجتزأت منه عدة أمتار، وأعطيتها إياها، وفى الأسبوع نفسه ارتدت ذلك الفستان فى الشوارع.. فرأتها أمى، وهى تعلم أن أمها لم تشترِ من ذلك القماش.. وعلمتْ بحكايتى معها، فعرضتها على أبى، وطلبت منه ألا يضربنى أو يؤذينى. لكن ما حدث كان أشد من الضرب.

كنت منسجمًا مع نغمات فريد الأطرش، وصوته الذى أعشقه وهو يشدو بأغنية يقول فيها: (بحبك.. بحبك.. بحبك لوحدك.. فى قربك وبعدك...)!! فسمعت جلبة داخل البيت، وتيقنت أن أحدًا خرج من حجرته، فأوقفت المذياع، وانتقل صوت فريد الأطرش ونغمه إلى لسانى أردده!!.. وفجأة رأيت أبى واقفًا فوق رأسى وهو يقول: (حبك برص.. يا بن الكلب)!!. وظننت الأمر قد انتهى عند هذا الحد، لكنه كان قد بدأ!!

لقد طلب منى فجأة - فى الثانية عشرة مساءً - أن أرتدى ملابسى وأتجهز لِمَ؟!. قال: سنهاجر من هنا، من القرية كلها.. واستيقظت أمى وإخوتى.. فأمرنا جميعا أن نتجهز لنهجر القرية فورًا.. كأن ما حدث كان عارًا!!

•• كم كان عمرك حينها؟

•فى السنة الأولى من المرحلة الثانوية.. على ما أتذكر. لقد ظن أبى أن هناك كارثة حدثت للفتاة، وسوف تظهر آثارها!! وبالتالى فنحن مجرمون لا نستطيع أن نواجه الناس!! لقد رجوته كثيرًا معترفًا له (بالخطأ). فقال لى: إن ما حدث لا يكفى فيه الاعتراف (بالخطأ).. ولم أكن أدرى ما يقصد على وجه التحديد، حتى انفردت بى أمى وسألتنى:

- ماذا فعلت أنت والفتاة بالضبط؟!

- لا شىء.. لقد ظللت أقبلها وتقبلنى.. على انفراد!!

- بس؟!

- نعم.. بس!!

ولم أفهم ما تقصده من حصارها ذلك، وتساؤلاتها إلا بعد سنوات وقد كنت بريئًا لا أفهم أعماق هذه العلاقات بين الجنسين. وقد فهموا هم حينها أنه لم يحدث ما يدعو للقلق، أو يمثل خطرًا على الفتاة!!. لقد كانت ليلة مرعبة بأن نغادر قريتنا بهذه الطريقة، وأحسست كم كان أبى حساسًا وحريصًا على كرامته أمام الناس.

•• ألم تدرك وقتها أنك باقتطاعك لبعض الأقمشة خلسةً ومنحها للفتاة ترتكب سرقة؟!

• لم يكن هذا فى ذهنى.كل ما هنالك رغبتى فى احتضان الفتاة وتقبيلها!! وحتى الآن لا أدرى كيف كنت أقبلها!!

••ما اسمها؟!

•لا أتذكره، ولا حتى أتذكر شكلها!!

•• أأثر ذاك الحدث الطفولى بعد ذلك فى علاقاتك بالمرأة فى مرحلة الشباب والنضج؟!

• لقد جاء بأثر عكسى غريب: حينما استقررت فى القاهرة، وسكنت بشارع نشاطى بشبرا، فى حجرة فوق السطوح.. ومعى فوق السطوح كان هناك «شقة» صغيرة تسكنها سيدة متزوجة من «مساعد» أو «صول»، ولاحظت أنه يغيب كثيرًا جدًا. هذه السيدة

مازلت أتذكر ملامحها حتى الآن، هى التى علمتنى الجنس!! وكانت أكبر منى.

فردًا على سؤالك أقول إن تلك الحادثة أثرت علىَّ عكسيا فلم أتعامل مع الفتيات الصغيرات، بل مع المرأة الناضجة، بعيدًا عن مشكلات الصغيرات!!

ومنذ معرفتى بتلك المرأة وأنا أفضل دائمًا فى علاقاتى العاطفية المرأة الناضجة لا الفتيات!! وربما جعلنى هذا - بعد أن نضجت وكبرت وأحببت فعلاً - عشقت امرأة أكبر منى فى السن بأربع سنوات، ولم أتزوجها.

•• ألبنانية هى؟!

• مصرية..

•• أمررت بأحداث عبث طفولى أخرى غير حب جارتك وسرقة القماش لإهدائه إياها؟!

• عن طريق (مدرسة الأحد) بالكنيسة الإنجليزية.. كنا كل عام نقدم فى أعياد الميلاد (تمثيلية عيد الميلاد)، وأحرص دائما على تمثيل دور (الملك هيرودس) الذى أمر بقتل جميع الأطفال دون العامين، لأن المجوس أنبأوه بأن طفلا فى بيت لحم سيولد، وسيكون ملك اليهود، وذاك الطفل هو المسيح.. فجاء أمر هيرودس بقتل جميع الأطفال، ولأجل هذا حدثت هجرة المسيح إلى مصر، بعد أن أوحى

الملاك إلى يوسف النجار أن مريم - خطيبته - حامل فى طفل عظيم، وأكد له على ضرورة هجرته بها بعد ميلاده، وبعد المولد ذهب إليه المجوس فعلاً، وقدموا إليه الهدايا فى مهده بصفته سيكون ملك اليهود، ثم هرب يوسف النجار ومريم بالمسيح إلى مصر.

كنت أؤدى دور هيرودس هذا. وتصورت نفسى سأكون ممثلاً حقًا كالممثلين الذين أراهم فى الأفلام الإنجليزية. لقد قويت لدىَّ فكرة التمثيل، وتشبعت بها. ومن خلال التمثيل فكرت أن أكتب مسرحيات كالتى أراها.. وحين كتبت فعلاً، قدمتها إلى مدرستى، فاستهانت بها، ومزقتها.

وأتذكر أن رغبتى فى الكتابة للمسرح تغلبت على فكرة التمثيل، وبعد تلك الفترة - أيام الدراسة الثانوية - قرأت مسرحًا حتى الثمالة. حتى أنه ليبدو لى أنى لم أترك مسرحية لم أقرأها من القديم والحديث.

•• أتتذكر أول مسرحية قرأتها؟

• (هاملت) لشكسبير باللغة الإنجليزية. وكنت أبكى وأنا أقرؤها وأصدق كل ما يجرى فيها من أحداث. ودليلى فى ذلك أن حكاية المسيح التى كنا نمثلها فى المدرسة قد حدثت!!

أما فن الرواية فقد كان (النوشادر) التى أنعشتنى وأيقظتنى فهمت منه أن الأحداث جميعًا خيالية كتبها مؤلفون، وتدرجت من هذا الفهم إلى أن المسرح لابد أن يكون كذلك: مجرد تأليف!!

●● فى زمانكم ذاك.. ألم يكن لديكم كتب أطفال؟!

● لم أقرأ كتابا للأطفال، ولم أقرأ أرسين لوبين..

●● ألم يكن هنالك حينها كتب أطفال؟!

● كانت موجودة - وباللغة الإنجليزية على وجه التحديد - وقد درسنا الآداب العالمية الكبرى - مثل أعمال شكسبير - على مراحل تتناسب وأعمارنا.. نبدؤها بلغة مبسطة، ثم بلغة متوسطة، ثم ندرس النص الأصلى.. هكذا درسنا شكسبير وديكنز وفرجينا وولف وبرونتى.. وغيرهم.. وكان ذلك منهج جميع المدارس الإنجليزية والأمريكية فى مصر.

●● ذكرت أنك كنت تعشق فريد الأطرش.. ألم يقاسمه عشقك مطرب آخر كصالح عبد الحى وسيد درويش وعبد الوهاب؟!

● كان المقدَّم لدىَّ فريد وأسمهان، وكنت أحب الأغانى الخفيفة لشادية وأفلامها. وكنت فى طفولتى ألصق صور الفنانين والفنانات الذين أحبهم على أوراق بيضاء فى كراسات، وخصصت لفريد (دفترًا) وحده!! وحين قلت له هذا الكلام بعد أن كبرت، اندهش جدًا، فلقد عرفته عن كثب فى لبنان، وكنت أسكن أنا وهو فى عمارة واحدة ببيروت، وكان تحتها «كازينو» يملكه على (صخرة الروشة) فى أوائل السبعينيات، وأمام عمارتنا هذى يقع مقهى (الدولشليتا)، ومعنا فى السكن أيضًا أقام محمود شكوكو الذى كان مصاحبًا لفريد.

•• ألم تغير رأيك فى فريد بعد أن نضجت فكريا ووجدانيا؟!

• لا.. أبدًا.. لقد كنت أغنى ألحانه، وقد سجل لى بصوتى بعضها.

•• أكنت تؤديها جيدًا؟!

• لا أعرف!!

•• ماذا قال فى صوتك؟!

• ماذا يقول؟!.. إنها ألحانه واختياراته!! أيقول (وِحِش) وقد أحببت أخته أسمهان أيضًا.. وكذلك فاتن حمامة..

•• كممثلة؟!

• لم أكن أفرِّق بين الحقيقة والخيال أو التمثيل!!.. حينما أحبها، فأنا أحبها بعامة، بكل ما فيها. ولا مانع لدىَّ أن أحبها هى وشادية فى وقت واحد، ومديحة يسرى الثالثة فى حبى!!

•• حينما رأيت فريد الأطرش، وعايشته واقعيا.. ألم تتغير مشاعرك الطفولية وخيالك القديم بشأنه؟! أتحقق فيه ذلك الخيال أم اختلف.

• ترسخ أكثر. وجدته إنسانًا نادرًا، يبلغ من النبل حد الإسراف ومن المحزن جدًا أننى فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩٧٤ كان بينى وبينه موعد لمشاهدة فيلم (نغم فى حياتى) بسينما (سارولا) ببيروت لنرى معًا العرض الأول فى الساعة السادسة.. وفى الخامسة والنصف كان التليفزيون اللبنانى يذيع خبر رحيله!!

•• على المستوى الموسيقى.. تعلقك الشديد بفريد الأطرش، ثم حبك لأسمهان وشادية يعنى أن علاقتك بالتراث الموسيقى العربى مقطوعة.

• نعم.. أنا لم أعرف سيد درويش إلا بعد استقراری بالقاهرة، ولا صالح عبد الحی، ولا غيرهما.. على الرغم من أن فريد نفسه كان يقول: إننی تعلمت على أيدی صالح عبد الحی وداود حسنی وجيلهما.

وقد عرفت المسرح بمعناه الحقيقی، وأبطاله: يوسف وهبی، وزكی طليمات، وعزيز عيد فی القاهرة.

•• المواويل الريفية التی كنا نتشبع بها جميعًا فی الموالد ومناسبات الزواج وغيرها.. ألم يكن لها وجود فی اهتماماتك؟!

• كنت (أُلَيِّل).. وكنا - كأطفال - نجلب قطعة من الخشب المجوف، ونشد حولها أسلاكًا دقيقة، ونستخدمها كعود!!، وقد كنت أعشق الليالی والمواويل، وفريد الأطرش يجيدهما.

•• أتحفظ شيئًا مما كنت تغنی؟!

• لا أتذكر منه شيئًا.

•• مدرسة الأمس - منذ حوالی نصف قرن - كانت جامعة، وجامعة اليوم أصبحت مدرسة.. ما تقييمك لهذا الحكم؟!

• الجامعة الحالية لم تصبح مدرسة.. ياليتها حتى تصبح مدرسة!!.. المدرسة - كما أفهمها - هی التی تربيت فيها.. التی تكوِّن الشخصية الإنسانية على نحو جديد.. لدرجة أن تفصله عن عوامل التخلف الموجودة فی بيته.. فلم يكن فی بيتی مكتبة، فعملت مكتبة

عن طريق المدرسة التى علمتنى أنها جزء ضرورى ومهم فى حياة الفرد كالطعام والشراب، ولابد من وجودها .. وقد تركتْ فىَّ عادة سيئة: أننى أقرأ أحيانًا وأنا آكل!! وهذا خطأ: فلا القراءة تعد قراءة، ولا الأكل أكلاً.. لكنها عادة قديمة تعلمناها ممن حفروا فينا محبة المعرفة لدرجة عظمى، وبكل الوسائل بما فيها صياغة الصلصال، والتلوين.. وقد مارست هاتين الهوايتين، وكنت خائبًا جدًا، ولم أستطع طوال عمرى صياغة (حصان) من الصلصال ولم أستطع رسمه!!. ولا علاقة لى بهذه الموهبة أبدًا. لقد كان الانجليز يعلموننا أن نكمل الحروف الهجائية لتأخذ أشكال حيوانات أو طيور.. فمثلا حرف (F) يمكن أن يتحول إلى عصفورة.. ومع كل هذا لم أعرف، ولم أتعلم!!

•• إذن عوضتَ هذا النقص (التشكيلى) بالملكة البلاغية واللغوية.

• نعم..

•• ولد جيلكم على دوىٍّ الهتافات المطالبة بالاستقلال، وعلى أصوات الرصاص الذى يخترق أجساد المطالبين بالحرية.. ماذا تتذكر من تلك الأيام؟.

• كنت أخرج فى المظاهرات التى تنظمها المدارس الأميرية: الإلزامية والأولية ومدرسة المساعى.. كانوا يحشدون أنفسهم، ويتجهون إلى المدرسة الإنجليزية ويرمونها بالحجارة، بصفتها رمزًا للمحتل، وليخرج تلاميذها لمشاركتهم التظاهر. وكنت أنا أتقدم الخارجين

من المدرسة، وأتسلق سور المدرسة الحديدى، فيتشجع «العيال» للخروج معى.. لا لأجل الوطنية بل هروبًا من الدروس!! وكم تعرضت للضرب من مديرة المدرسة لهذا السبب وقد أصبحت واحدًا من المشاغبين فى هذا المجال، وكانوا يحملوننى على أكتافهم وأطلق هتافات وطنية، ذلك رغم وداعتى فى المدرسة، وحرصى على تحصيل دروسى.. إننى عرفت السياسة مبكرًا، ومن بوابة قضية فلسطين.

•• السيدة مارى، أول مديرة مصرية للمدرسة الإنجليزية.. أكانت تشجعكم على المظاهرات أم تمنعكم منها؟!

• لا.. لم تشجعنا. وكان الإنجليز - فى حوالى عام ١٩٥٠م - يحسون أنهم راحلون عن مصر، فبدأت رقابتهم تخف، وحصارهم لنا يضعف.. وكل هذه التفاصيل يعرفها بدقة زميلى فى تلك المدرسة الفنان جورج البهجورى.

.. وفى ذلك الوقت لم أتخلَ عن أستاذى الشيخ حافظ، ولا عن محاولاتى فى أن أكتب.. ونشرت أول مقال فى حياتى بمجلة اسمها (المسلة كانت تصدر فى كفر الزيات بتمويل صيدلى اسمه (ناشد يوسف). ولا أدرى أيحيا هو حاليا أم مات، وقد نشرت ذلك المقال فى سبتمبر ١٩٥٢.

•• وخروجك فى المظاهرات ألم يُسفر عن عقاب منزلى لك؟!

• كان أبى يقول عنى: إنه هو الصعيدى، لا أنا!! وكان يلتمس لى العذر فيما أفعل.. ويؤكد لى أن لدى أعدائنا الإنجليز بعض مما هو

طيب، وهو العلم، فعلينا أن نأخذه عنهم.. أما ما هو سيئ فلا نقلدهم فيه. وعليهم كمستعمرين أن يتركوا بلادنا.

• • كانت المساجد والكنائس موئلا للحرية والاستعداد للاستقلال أيام الاحتلال الإنجليزى لمصر.. أكانت الأسر تغرس فيكم هذا الولاء للوطن قبل أى شىء آخر، أم هو نمط الحياة العام، أم هى مواجهة العدو المحتل؟!!

• كان أبى يؤكد لى أن هؤلاء المحتلين لديهم شيئان: العنصرية والعلم.. فإقدامهم على احتلالنا معناه العنصرية، لأنهم يعتقدون بتفوقهم علينا، وعدم مساواتنا بهم!! والحقيقة - كما قال أبى - أننا الأفضل منهم.. لا بحكم النعرة الذاتية، بل بواقع التاريخ والحضارة: فنحن الذين بنينا الأهرام، والمساجد والكنائس العظيمة، وتقدمنا بالبشرية فى قفزات للأمام منذ آلاف السنين.

لقد كان يغرس فى نفسى محبة الوطن من خلال العداء للاستعمار وكان فى منوف واعظ مسيحى - تحول بعد ذلك إلى قسيس - اسمه زكى إبراهيم.. وبعد أن أصبح قسيسًا حمل اسم (أبونا أنطونيوس إبراهيم). وكان مثل القمص سرجيوس خطيب ثورة ١٩١٩: يتردد على المساجد والكنائس للخطابة السياسية فيها، ويهاجم الإنجليز من كل المنابر.. إنه نموذج للوطنية والبلاغة، ويسعى المسلمون قبل الأقباط لسماعه.

•• أتعتقد أن هذا التوحد كان حالة طارئة لمواجهة العدو، أم هو كائن كامن فى نفوس الشعب بسائر طوائفه؟! فقد اتحد الناس جميعًا فى ثورة ١٩ مثلاً..

• فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات لم تكن هنالك ثورة ١٩١٩.. بل برز حينذاك دور الفدائيين فى منطقة القناة بعد أن ألغى النحاس المعاهدة.. الانتماء والتوحد كان موجودًا.. الشعب واحد، ويحس جميعًا بأنه لا فرق..

•• غناء العصافير يبدأ بالصوصوة.. ماذا عن «صوصواتك» الإبداعية الأولى فى الشعر والخطابة والقصة.. أو لنقل فى موضوعات الإنشاء.

• كنت متفوقًا فى اللغة العربية: سواء فى الدراسة الابتدائية أو

الثانوية. وقد نال المنفلوطى كثيرًا من صحتى ونظرى، وأنا منكفئ على كتاباته، كما كنت أعشق الشعر: فحفظت شعر شوقى جميعًا، وحافظ إبراهيم كله.. إضافة إلى أعضاء المدرسة الرومانسية: إبراهيم ناجىَ وعلى محمود طه.... وقد أحببت أنور المعداوى كناقد من خلال محبته هو لعلى محمود طه.. لأنه قدم عنه كتابات عظيمة جمعها فى كتاب: (الملاَّح التائه).. والهمشرى - كرومانسى أيضًا - ومحمود حسن إسماعيل.

وبالنسبة لمحمود حسن إسماعيل درسته أنا ومحمد عفيفى مطر على سطح منزل عفيفى فى قرية (رملة لنجب) التابعة لمركز منوف..

وكان يأتى إلى منوف للدراسة. وفى أحد الأيام كنت واقفًا على باب (مكتبة شقير) والد د. لبيب شقير رئيس مجلس الأمة حينذاك.. فرأيت صبيًا أسمر طلب كتابًا ما، فتحادثنا، ثم تصادقنا منذ ذلك الوقت. وكان مطر يكتب شعرًا، وأنا أعلق عليه كاتبًا: إنك تستحق جائزة نوبل للسلام!! لأن كل حديثه عن السلام. وكان قد بدأ يتأثر حينها بالشيوعيين: محمود أمين العالم وغيره.

•• أكان يكتب كلامًا له قيمة فنية أم مجرد خواطر بدائية عادية؟!

• أتذكر له شيئًا بعنوان: (مع ولدى فى مهده) وقد شجعته على أن يرسلها لمجلة الرسالة. وأرسلها، ونشروها فعلاً. وهى أقرب إلى النثر الشعرى.

•• أتحفظها؟!

• .. ولا هو يحفظها!!

•• أنُشرتْ فى (الرسالة) كقصيدة أم كمقطوعة نثرية؟!!

• كقصيدة.

•• إذن.. كانت موزونة!!

• لا.. ليست موزونة تمامًا!!

•• هى نثر فنى إذن..

• نعم.. وكانت جميلة جدًا.. وكنت أزوره فى منزله، ونجلس فوق السطح نقرأ.. ومن خلاله عرفت مجلتى الرسالة والثقافة - فى

مجلدات - وقرأنا معًا بعض الشعراء، وخاصة محمود حسن إسماعيل فى كل ما كتب، بما فى ذلك ديوان (الملك) الذى لم يكن من السهل العثور عليه بعد الثورة.. فاكتشفه عفيفى مطر فى مكتبة البلدية بشبين الكوم، وكان مطبوعًا طبعة أنيقة جدا، على ورق مصقول، وحروف جميلة!!

•• إذا كانت لك تجاربك الأولية فى الشعر والقصة والمقالة.. أليس من المتيسر لنا الحصول الآن على بعضها؟؟

• للأسف، لا أحتفظ منها بشىء. لكن بعد ذلك أتذكر أنى نشرت فى مجلة (قصتى) عملاً قصصيًا بعنوان: (حكاية كل يوم) وعملاً آخر اسمه (إلى اللقاء).. وهذه هى الكتابات التى رآها أستاذى محمود الفيشاوى وشجعنى بعدها - أنا وزملائى التلاميذ - على إصدار كتيب صغير باسم: (صوت الأدب).. وهو شىء وسط بين المجلة والكتاب، تأثرنا فيه بشكل سلسلة (كتابى) لحلمى مراد. وكانت حينها المعركة مشتعلة بين القديم والجديد، وكذلك دور الأدب ورؤيتنا للفنون: أيعد الفن للفن أم الفن للحياة؟!.. فكتبنا تحت عنوان (صوت الأدب) شعار (نحو أدب رفيع لحياة أسمى)..

•• طفولة الجيل الذى سبقكم وطفولتكم.. أهناك تطور من جيل لآخر؟ ما الفارق؟!

• هناك اختلاف كبير بيننا وبينهم.. فالذى يولد وأبوه أحمد أمين أو طه حسين سوف تكون ظروفه أفضل من ظروفى أنا.. وهناك بنوة

فكرية من نوع مختلف، كهؤلاء الأدباء الذين ينتمون لأمين الخولى كأستاذ لهم فى جمعية الأمناء: ومنهم: فاروق خورشيد، عز الدين إسماعيل، شكرى عياد، عبد القادر القط، صلاح عبد الصبور.. وعلى الرغم من أن جمعية الأمناء - التى سميت بعد ذلك الجمعية المصرية للنقد الأدبى - والتى أنشأها أمين الخولى لا تعبر عنه فكريا، فإن هؤلاء الأدباء جميعًا يعترفون بفضله عليهم.. ومن ناحيتى فقد اطلعت على كتاباته، وأنا فى زمن غير مبكر. وأرى أنه صاحب مدرسة فى النقد الأدبى.

•• لقد درسنا فعلاً تفاصيل منهجه النقدى هذا، وآراءه الفكرية بعامة من خلال أخلص تلامذته له، وهو أستاذنا الراحل د. عبد الله خورشيد البرى.. وعلى يديه تعرفنا على التفسير الأدبى للقرآن الكريم الذى تبناه الخولى.

• وكتاباته الأخرى مثل: فن القول، فى الأدب المصرى.. وأحببته كثيرًا، وأظنه من كبار المظلومين. ولا أظن جمعية الأمناء تعبر عنه بحق.. وإنما هم مجموعة من المثقفين مختلفى المناهج، يجمعهم التلمذة عليه، ثم إنهم أخذوا الأدب بجدية فقط.

وكذلك لا أستطيع أن أنسى مصطفى صادق الرافعى أبا القصيدة النثرية.. إنه حقًا رجل رجعى، لكنه فى اللغة عظيم، وقد تعلمت منه كثيرًا. لقد فتنت به، بل وحدثت لى أزمة بسببه، لأننى بعد فترة قصيرة من تعرفى على أدبه أحببت نقيضه، وهو سلامة موسى. هو

نقيضه أولاً فى اللغة، وفى كل شىء بعد ذلك.. ولغتى أنا أقرب إلى سلامة موسى منها إلى مصطفى صادق الرافعى.

•• سلامة موسى مختلف فى لغته عنكما: إنه صاحب لغة واقعية - إذا كان هذا مصطلحًا مناسبًا - لغته قاطعة حاسمة محددة، بلا ظلال، ولا احتمالات.

• نسميها اللغة التلغرافية.. كان يقول: عليك أن تعتبر كل كلمة تكتبها تلغرافًا، تدفع لها مقابلاً ماديًا.. فلا تسرف.

•• أظنك تنتمى لمدرسة طه حسين فى اللغة أكثر من سلامة موسى..

• أنا عجينة من عدة طرائق.. ومتأثر أيضا باللغات الأجنبية فى صياغتى للغة العربية.. فى الإيقاعات.

(يرفع د. غالى زجاجة الماء إلى فمه، ويعب منها مباشرة..) ثم يقول:

- هذه عادة ريفية..

- أية عادة؟!

- القُلَّة.. أن تعب منها مباشرة.

- لكن القُلة أجمل وأنقى.

- مليون مرة.. وماؤها بارد بلا آلات.

ثم يواصل د. غالى حديثه قائلا:

لقد كان رأى سلامة موسى فى مصطفى صادق الرافعى أنه (الكاتب الذى يجب أن تنساه عن ظهر قلب)!!.. وكان الرافعى يتصارع مع العقاد، ولم أكن أنا عقاديا. لقد قرأت العقاد جيدًا. لكنه لم يعجبنى.

•• إذًا كان اختيارك وحبك مشتتًا بين الرافعى وسلامة موسى.

• هو لم يكن اختيارًا واعيًا.. إن سلامة موسى يحطم فى قارئه أشياء مستقرة وراسخة جدًا.

•• والرافعى يبنيها!!.

• كان قد بناها فعلاً.. بما فيها العقيدة، والعروبة، لقد كنت عربيًا جدًا منذ البداية.. وأثرت فىَّ قضية فلسطين تأثيرًا كبيرًا.

•• مَنْ توصلتَ إليه أولاً: الرافعى أم سلامة موسى؟!

• الرافعى.. اطلعت على كتاباته فوق سطح منزل عفيفى مطر الذى كان - ومازال - مشغوفًا بالرافعى وضد سلامة موسى.

•• فى تلقيك الأولىِّ لسلامة موسى.. أتعتقد أنه كان صادقًا كل الصدق؟! لقد كان يهدم العقيدة، كما تذكر..

• لا أتحدث عن العقيدة الدينية نفسها، بل عن تصورنا للدين، التراث الفنى.

•• كان يريد - حسب تصورى - أن يقيم (دينًا وطنيًا)..

• هو رجل علمى لا علمانى.. ومدين بالفكر العلمى - الذى تلقاه مبكرًا جدًا من إنجلترا - للجمعية الفابية والتقائه ببرنارد شو وويلز. وبمناسبة الصدق، هو صادق فى كل حرف. ومسكين من لم يعرفه.

•• ربما كان صادقًا.. لكنه قد يكون متناقضًا: ففى كتابه (تربية سلامة موسى) ظل ينفر الناس من الجمود والقيود والتقاليد.. وذكر بعد ذلك أنه حينما تزوج اقترن بفتاة اختارها له أهله، ولم يكن يحبها ولا تحبه قبل ذلك الاقتران.. أى تزوج زواجًا تقليديًا.

• ليس هذا فقط.. بل وأنجب ثمانية أبناء!! وهو يدعو لتحديدالنسل وله كتاب فى تحديد النسل، قد يكون الأول من نوعه فى تاريخ اللغة العربية.

•• ألا يضعف هذا من مصداقيته أمام الناس؟!

• لا.. إن هذا يعنى أن المجتمع أقوى منه كفرد.. وعلى الصعيد الفكرى بالنسبة له: ماذا يجمع بين نيتشه وماركس؟!.. لا شىء!! أما هو فكان يجمع بينهما. إنه مشحون بكل تناقضات العصر، وتناقضات المجتمع. وليس هنالك كاتب له اتساق كالسيف.

وقد كنت أداعبه كثيرًا بشأن أبنائه هؤلاء.. وأقول له: تدعونا لتحديد النسل، وأنت تنجب ثمانية؟!. وقد كان إنجابه فى البداية من البنات، فكأنه أراد إنجاب ذكر، فكرر الإنجاب حتى جاء ابنه (رءوف).. ففكرة (الولد) قائمة لديه كسائر الناس فى مجتمعنا. وربما كان رده أن زوجته هى نفسها التى تريد (الولد) وليس هو!!.

وهذا يعنى من ناحية أخرى أنه لم يستطع التأثير فيها وتربيتها علميًا!!

(الرافعى.. والنثر الفنى)

•• ذكرتَ أن مصطفى صادق الرافعى (أبو القصيدة النثرية) وأنا أشير إلى أنه لم يكتب هذا الكلام على أنه (قصيدة)، إنما هو (نثر فنى).. والذى جاراه فى هذا زكى مبارك، وقدم كتابا عظيمًا بعنوان: (النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى) فأرَّخ لهذا النثر، وأورد نماذج كثيرة ورائعة منه.. ألا يعنى هذا أن الرافعى وزكى مبارك لم يتركا للمقبلين شيئًا.. وأن ما يكتب الآن من هذا القبيل مجرد عبء عليهما.

• ليس زكى مبارك والرافعى فقط هما اللذان كتبا (نثرًا شعريا)، بل كتب أيضًا بإتقان حسين عفيفى.. وتظل هناك فروق بين ما كتبه هؤلاء وبين (قصيدة النثر) التى مرجعيتها أوربا - وفرنسا بالذات - فالمشاعر هى التى كانت تضخ عند الرافعى. وعلاقة اللغة بالشعور تجعلها لغة مجنحة ومجردة وإيقاعية. أما (قصيدة النثر) الحديثة فشىء مختلف تمامًا فى البنية وتراكيب المعنى. إنها فرع من شجرة الشعر، بينما النثر الفنى متفرع من شجرة النثر.

•• النثر بالمعنى المعروف يقصد به (النثر الفنى) على وجه التحديد وليس كل كلام مرسل يسمى نثرًا.. ومقاييس هذا النثر وسماته

وتراكيبه منطبقة على ما يسمى (بالقصائد النثرية) التى يكتبها البعض الآن.. فلو أخذنا إحدى الرسائل التى كتبها الرافعى ووزعناها، بنظام السطر الشعرى فسوف تنتج لنا ما يشبه هذه الكتابات الجديدة التى هى ليست من الشعر..

• لا.. سوف تجد هناك منطقًا صرفًا يحكمها.

●●●

التراث.. في وجداني

التراث.. فى وجدانى

المنبع الضحل لا يولد منه نهرٌ عاتٍ.. وكذا التراث الردىء لا ينجب غير فكر ردىء، والتراث الثرى ثمرته يانعة بضة حلو طعمها وهذا هو شأن تراثنا العربى الإسلامى العريق العميق.

فمن هذا التراث نبت الطهطاوى، والبارودى، وشوقى، ومحمد عبده، والمنفلوطى، وحافظ، والرافعى، وطه حسين، والعقاد، وزكى مبارك، والمازنى، والزيات، وهيكل، ومحمود حسن إسماعيل وقائمة طويلة من القامات العالية فى عصرنا الحديث.. ظهرت واستطالت بمجرد أن نفخت طبقة الرماد الطامسة وجه هذا التراث.

ولم يكن غالى شكرى سوى واحد من هؤلاء المفكرين الذين تربوا على مائدة التراث.. وحاول أن يجمع منه كل فضائله، ويتوقف عند أنصع صفحاته، ويتتلمذ على أنضج علمائه وأوعاهم وأوسعهم أفقًا.

لذا فهو صريح، صادق، ومخلص أيضًا لهذا التراث العظيم مدافع عنه بوعى وموضوعية.

وصفات غالى شكرى هذه شجعتنى على اجتياح جميع الموانع فى حوارى معه، حتى ما يشاع من إعلانه إسلامه فى ليبيا - منذ سنوات - وحصوله على مليون دولار مكافأة على اعتناق الإسلام!!!

قلت له:

•• الإبداع يبدأ بالتقليد، والتقليد لا يتأتى إلا بقراءة نماذج الأدب بلغتنا ولغات الأجانب.. رحلتك مع القرآن كنص أدبى ومع التراث العربى والأجنبى.. متى بدأت؟؟ وكيف كنت ترى ذلك التراث بعيون الشباب.. ثم كيف تراه الآن بعين المفكر صاحب الرأى والرؤية؟

قال:

• كما سبق أن ذكرت، يعود الفضل للشيخ حافظ أستاذ اللغة العربية فى المدرسة الإنجليزية بمدينة منوف، فى أننى تعرفت على القرآن الكريم أولاً، ثم التراث العربى فى الشعر عبر الدرس الخصوصى الذى كان يقدمه لى مجانًا. ولم أكن أفهم أكثر ألفاظ القرآن الكريم كمعنى وسياق، وإنما كان يعنى الشيخ حافظ عناية قصوى أن أحفظ، وأن أجوِّد هذا الحفظ صوتيًا لكى أجيد وأفهم مخارج الألفاظ وأسلوب تركيب اللغة العربية، وأحيانًا الإعراب.. هذا ما كان يعنيه، وما كنت أستطيع تلقيه. فقد كنت طفلاً فى السابعة، والأمر

صعب أن أفهم معانى القرآن.

•• الهدف كان اللغة والنحو والبلاغة..

• نعم.. كان هذا هو الأساس. ونفس الشىء حدث بالنسبة للشعر، فامرؤ القيس وعمر بن أبى ربيعة وكل التراث الشعرى قرأته ولم أكن أعيه. هنا يعود الفضل إلى الأستاذ محمود الفيشاوى الذى تلقانى فى المرحلة الثانوية. فهو الذى عنى بى أكثر، بتعريفى ببعض كتاب التراث بمكتبته وفى الأدب الحديث أيضًا.

ربما كان كتاب (البخلاء) للجاحظ هو أول كتاب تلقيته من محمود الفيشاوى. وأعجبت بأسلوب الجاحظ إعجابًا شديدًا، فتنت به، هو وابن المقفع. ربما كان ذلك فى حوالى الرابعة عشرة من عمرى.

أما المكتبة التى نهلت منها التراث العربى الإسلامى: ألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة، الأغانى، تهافت التهافت لابن رشد الذى دفعنى لقراءة الغزالى.. فقد كانت - ويااللدهشة!! - هى مكتبة سلامة موسى. وجدت كنزًا. وقد كان يسترد كتبه منى بعد قراءتها لكنى حرصت على التقاط ما سطره من تعليقات على هوامش الصفحات فى هذه الكتب العظيمة، لقد كانت تلك المكتبة هى الزاد الأول شبه المكتمل للتراث العربى الإسلامى. ولم أجد عنده كتابًا مثلاً عن الفراعنة، وهو مشهور بالفرعونية، باستثناء كتاب سليم حسن عن مصر القديمة، فى ستة عشر جزءًا.. وأعتقد أن النسخة التى لدىَّ فى مكتبتى هى نسخة سلامة موسى التى لم يستردها.. أما بالنسبة للتراث العربى الإسلامى فكان يسترده أولاً بأول.

•• أنسى لديك كتاب سليم حسن أم تناساه؟!

• لا أدرى.. أنا تناسيت، وهو وافق متواطئًا مع النسيان! وبالنسبة للتراث الغربى كانت المدرسة الإنجليزية هى الأساس. وحين قدمت إلى القاهرة كانت مكتبة الجامعة الأمريكية مصدرى الأكبر. وكنت مهتمًا بالمجلات الثقافية أكثر من الكتب: فهى تقدم بانوراما شاملة بالمعرفة الغربية. وربما كنت من أوائل الذين يقتنون دائرة المعارف البريطانية التى تتجدد كل عام.

وعن طريق سلامة موسى تعرفت بثلاثة مشايخ كانوا من أصدقائه الحميمين. وربما يكون هذا مصدر دهشة لبعض الناس. كنت أجد عنده خالد محمد خالد، والغزالى حرب - والد الدكتور أسامة - ومحمود أبو رية الذى كان رفيقًا دائمًا لطه حسين ويلازمه كالظل. هؤلاء المشايخ الثلاثة حينما كنت أستمع إليهم كان هناك ما يغمض علىَّ .. وحينما كبرت كانت هناك مسائل أكبر فأكبر فأكبر.. كنت أنصت إليهم بانتباه شديد، وأسأل أحيانًا بأدب عن قضية أو أخرى، وعن مرجع أو آخر. لم أستعرْ من أىٍّ منهم كتابًا، لكنى عن طريقهم عرفت السبيل إلى الحسين، وإلى المكتبات القديمة هناك، ومنها تكونت مكتبتى التى لاتزال لدىَّ حتى الآن.. وازدادت كلما سافرت إلى بغداد والمغرب ولبنان وتونس على وجه التحديد.

كنت أميل - بطبيعة الحال - إلى الشعر أولاً.. فاشتريت أكثر من طبعة لديوان المتنبى - على سبيل المثال - وجميع تحقيقات دار

المعارف لكتب التراث فى سلسلة (ذخائر العرب) خصوصًا ابن سينا وأبا العلاء.. وملت إليها فى البداية. لكنى عنيت عناية مضاعفة بعد ذلك بالفلسفة والفكر الإسلامى فى مظانّه، ثم فى الشروح. وكان الحوار العظيم بين الإمام أبى حامد الغزالى وابن رشد من المحطات الرئيسية فى تكوينى التراثى. كذلك قرأت ما يتصل بعلاقة الفقهاء بالسلطة السياسية، ووصايا الفقهاء للأمراء والحكام، واقتنيت من هذه الوصايا الكثير. وكونت هذه الاهتمامات فيما بعد خلفيتى عن المثقف العربى المسلم والسلطة.

علم الكلام، وبعض ما جاء فيه، كان من بين اهتماماتى. واهتممت كذلك بالخط العربى، ولذا كثر ترددى على دار الكتب، لأحاول - بصعوبة - أن أقرأ المخطوطات وأتبين العلاقة التى بين الخط والحرف، الخط والكلمة، الخط والجملة.. كأن الخطاط له رأى فى الكلام الذى يخطه. وهذا الرأى ينعكس على أسلوبه فى الخط.

وكان يهمنى أيضًا فى التراث العمارة الإسلامية: فبعض أصدقائى ممن يعرفون المساجد الشهيرة بالقاهرة اصطحبونى إلى تلك الأماكن التى كتب عنها - فيما بعد - نجيب محفوظ :الجمالية والغورية والحسين والأزهر، أى القاهرة الفاطمية.. زرتها عدة مرات لأشبع عينى من ثقافة العمارة الإسلامية. وربما فى وقت متأخر جدًا تعرفت على التراث القبطى حدث هذا وعمرى حوالى عشرين عامًا.

حينما تعرفت على التراث القبطى كنت قد فارقت مفهومًا معينًا للدين. ذهبت إليه متحررًا من سطوة الكنيسة واعتباراتها. ذاك التحرر

حدث وعمرى حوالى ١٧ سنة، فلم أعُدْ منذ تلك السن (مسيحيًا طيبًا) أو (مسيحيًا جيدًا).. كنت قد تحررت من عقيدة شهادة الميلاد فى رؤيتى للتراث القبطى. ولكن كان لابد من معرفة هذا التراث طبعًا. وقبل ذلك - بطبيعة الحال - كنت قد تعرفت - إلى حد كبير - على التراث المصرى القديم. وهذا كله بدأ يرتبط بعضه ببعض: مصر القديمة، مصر اليونانية الرومانية، مصر القبطية، مصر العربية الإسلامية، مصر الحديثة. وباستثناء كتب الفقهاء ووصاياهم للأمراء والحكام لم أكن شديد التعلق بالتراث الإسلامى فى الفقه.

•• لماذا.. التعقُّد؟!

• لم أستطع قراءته!! صعب علىَّ!! وكنت قد قرأت ما جاء فى القرآن الكريم عن الشريعة.. لكنى لم أكن مهووسًا بالقانون أصلاً.

(صدمة بالغة!!)

•• وماذا عن التفسير.. إنه مهم للأديب ويكشف له أسرار الإعجاز البلاغى للقرآن؟؟

• التفسير قرأته.. «ذاكرت» الطبرى والسيوطى، وما وقع فى يدى من المفسرين. لكن اهتمامى الأكبر تركز فى تفاسير العصر الحديث: الإمام محمد عبده، ظافر الصابونجى السورى، الطاهر عاشور التونسى وتفسيره (التحرير والتنوير) فى حوالى ستة عشر جزءًا.. أثناء وجودى فى تونس «ذاكرته»..

•• أهو من جيل الشيخ محمد عبده؟

• تقريبًا.. وقارنت بينهم - كمفسرين - واستخلصت ما هو مشترك وما هو مختلف بين هؤلاء الشيوخ.

لكن الحقيقة، أن الإسلام بدا لى فى وقت مبكر جدًا كثقافة وحضارة، وطبيعى أنى كنت أتابع التاريخ المصرى الوسيط والحديث لأمثال المقريزى وابن إياس والجبرتى.. كنت أتابع ما يجرى للمصريين وفقًا لمفاهيم العصر العثمانى فى الشريعة وهذا الأمر صدمنى - بصراحة - صدمة بالغة.

•• أكنت تعتقد أن ذاك هو مفهوم الإسلام فى هذه القضايا؟!

• لا.. إنه المفهوم العثمانى، لا الإسلامى.. لكن هذا التطبيق العثمانى للشريعة الإسلامية - كما انعكس فى حياة المصريين - كان كارثة دون زيادة أو نقصان: محاولة لإفناء الشعب المصرى ماديًا: ذبح الرقاب لأسباب تافهة جدًا. وتلمس تلك الأسباب كان يفتقر إلى أية شرعية، صدمنى هذا، بالإضافة إلى صعوبة قراءة كتب الفقه الأساسية. التفسير وحده - القديم والحديث - ما كان يستطيع أن يمحو من وجدانى صعوبة التلقى المباشر لفكر الشريعة الإسلامية!!

وقد استقر فى وجدانى أن الحضارة العربية الإسلامية هى الثقافة، وليست العروبة بمعناها العرقى العنصرى.. وإنما العروبة

والإسلام ثقافة وحضارة. وبالتالى كان يمكن لمسيحى مثلى أن ينتمى إليه عبر وطنيته: مصر.

•• الأخطل.. وبنو تغلب - قبيلته - كانوا مسيحيين، وهم عرب أقحاح..

• فى مصر هناك من فهم أن العروبة والإسلام نسب عرقى، وساعد على هذا الفكرُ القومى العربى القادم من سوريا. وهذا التصور نفَّرَ المسيحيين العرب من العروبة. أما أنا فكنت واعيًا بعروبتى منذ البداية إلى النهاية: على أن الإسلام عنصر توحيدى فى هذه العروبة هو أيديولوجيا الأمة العربية، هو الروح، بدون أن يعنى ذلك أن أكون مسلمًا بالعقيدة. وكنت أكرر ذلك كثيرًا جدًا جدًا فى كتبى ومقالاتى: أننى أنتمى إلى الحضارة العربية الإسلامية. فأنا مسلم لا أقل إسلامًا عن المسلمين العرب جميعًا فى شىء، إذا كان الإسلام ثقافة وحضارة، وقد قلت هذه الجملة مرة فى التليفزيون الليبى.. (أقول لك بدون أن تسألنى عن هذه القضية)!!.. قلتها مرة: إن جميع العرب مسلمون، بما فى ذلك أصحاب العقائد الدينية المختلفة. فأنا أعتبر نفسى مسلمًا بالثقافة والحضارة، رغم أنى مسيحى.. وقد اعتبر بعض الناس هذا الكلام اشهارًا للإسلام وسرت كشائعة مسرى النار فى الهشيم، حتى أتيت من فرنسا إلى مصر، فوجدتها وصلت إليها واستشرت فيها!! وهذا لم يكن صحيحًا بالمرة. ومصدر أى اشهار عقائدى هو الشخص نفسه.. فأنا قلت بالتليفزيون حرفيًا ما ذكرته الآن، لكن اختلط الكلام على أسماء الناس. وهناك - فى ليبيا - مصريون بالطبع، فتنوقل بسرعة.

والحقيقة أنه ليس هناك ما يدعونى - عقائديا - للانتقال من عقيدة إلى أخرى. كل العقائد لدىَّ سواء، أنظر إليها كثقافة تاريخية، كمفهوم حضارى.. حتى المسيحية التى انتمى إليها، هى بالنسبة لى تاريخ وثقافة وحضارة، لا أكثر ولا أقل. نفس الشىء بالنسبة للإسلام. وليس لدىَّ كلام آخر فى هذا الموضوع. هذه هى الحقيقة المنبثقة من قبل هذا الكلام فى مؤلفاتى بكثرة، ومنذ بداية البدايات. هو ليس كلامًا جديدًا.

وأعتبر هذه الشائعة لم تسىء إلىَّ إلا فى نقطة واحدة، هى أن موقفى الفكرى من الحياة ومن الوجود ليس واضحًا لدى الناس الذين رددوا هذه الشائعة.. كأننى خرجت من دين إلى دين آخر، أنا لم أخرج، ولم أدخل.. لأن الموضوع كله بالنسبة لى سواء فى الثقافة. غاية ما هنالك أن العروبة والإسلام جزء من الهوية.. فحينما أقول: أنا مصرى، فى نفس اللحظة أقول: أنا عربى.. وكما أقول: إننى عربى..، فالإسلام عنصر جوهرى فى تكوين عروبتى. أى أنه جزء من هويتى.

•• مادامت شائعة فقد أضاف لها الذوق العام بعض الحواشى والزوائد منها - مثلاً - أن مكافأة إشهارك لإسلامك بلغت مليون دولار من ليبيا، ومثلها من المغرب!! ربما أراد ناشرو الشائعة إيجاد تبرير «منطقى مالىٍّ» لهذا الموقف!!

• طبعا.. إن حساباتى فى البنوك مفتوحة لأى إنسان فى أية مرحلة قبل هذه الشائعة، وأثناءها، وبعدها.. وإذا كان حسابى قد وصل بالفعل إلى مليونين أو مليون دولار أو أية مبالغ من هذا القبيل فلهم

الحق فيما قالوا.. إننى افتح حسابى فى أى بنك لأى شخص يريد أن يعرف ويستقصى. إنه كلام خرافى لم يحدث قط.. ومغفَّلٌ صاحب الجهة التى تعطى مبلغًا كهذا مقابل اعتقاد دينى، لأن الدين لا يُشترى. إنه إيمان أو اقتناع عقلى.

(تاثير متبادل)

•• عودة إلى ما تحدثت عنه فى مجال تاثرك بالعمارة الإسلامية والقبطية والعمارة المصرية القديمة ايضًا.. ومن المعروف أن مصر «تطبخ» كل الحضارات فى إطارها الذاتى.. هل لمست تاثيرًا وتاثرًا بين العمارة الإسلامية والقبطية على وجه التحديد؟؟

• بالتاكيد.. وليست العمارة وحدها، بل أكثر من هذا فى الطقوس الدينية.. الأذان مثلا عند المسلمين، والقداس عند المسيحيين تجد تشابهًا كبيرًا فى «التيمات» الموسيقية التى اعتمدت عليها العقيدتان.. فى جامع عمرو بن العاص تجد الأعمدة هى ذاتها الأعمدة الموجودة فى الكنيسة المصرية. حتى فى المحراب: كانك صاعد إلى الهيكل فى الكنيسة وربما كان مصدر هذا وذاك المعبد المصرى القديم.. وبعيدًا عن العقيدة الدينية، ففن العمارة والهندسة قدمه بشر، وهؤلاء البشر لديهم دفء روحى خاص.. ولا يمكن أن تفصل الإنسان إلى جزء: ميكانيكى أو نجار أو بناء.. وجزء عقيدى، فمن بنى المسجد هو الذى بنى المعبد والكنيسة ولذا كان هناك تشابه ولايزال.

•• لو تطرقنا من هذه الجزئية إلى نمط الحياة نفسها.. ألاحظ أن العادات والتقاليد فى مصر بين الديانتين وأهلهما تكاد تكون متداخلة ومتطابقة..

• لا تكاد.. بل هى واحدة فى الشعائر اليومية: أى الدين المعاملة فحينما نترجم الدين إلى حياة عملية نجده مجموعة شعائر نسميها التقاليد والعادات والأعراف. إنها واحدة فى هذا الشعب الواحد.

•• بشأن حديثك عن تلقيك لتراث الشعر العربى - والنثر أيضًا - سواء أكان فلسفة أم أدبا.. لم تُشِرْ إلى أن هناك عنتًا ما واجهك فى تلقى هذا التراث.. أكان هنالك صعوبة فعلا فى تلقيه أم يسر؟ ولو قارنا حالكم - كجيل - بحال الشباب الراهن - وهم نافرون من تراثهم - أيرجع هذا إلى صعوبة فهم التراث واستساغته وهضمه أم إلى سوء التوصيل أم قلة الوعى؟!!

• حينما كانت تعترضنى معضلة كنت أستوضحها من المحقق نفسه.. وكثيرًا ما كنت أسأل د. عبد الرحمن بدوى، وقد حقق مخطوطات إسلامية مهمة جدًا. وكانت تغمض علىَّ بعض القضايا والمفاهيم، أو تنبت إشكاليات فكرية، فكان يشرحها لى. وكذلك د. عبد العزيز الأهوانى كثيرًا ما تعب معى.. ثم الدكتور محمد أحمد خلف الله.. إنه صاحب فضل كبير علىَّ حينما تقدمت بى السن.. ولم يضن علىَّ بوقته فى أية لحظة: شرحًا وتوضيحًا وتفسيرًا لما أريد..

•• إذن المسألة ترجع لطريقة توصيل التراث لا إلى التراث نفسه.

• على فكرة.. بمناسبة سؤالك عن العادات والتقاليد الواحدة بين أفراد الشعب المصرى بكل مكوناته.. أذكر أن الأديان الكبرى حينما وردت إلى مصر تمصّرتْ. فالمسيحية لدينا ليست هى المسيحية الموجودة فى الغرب، مسيحية مصرية.. ورأيى أيضًا أن الإسلام إسلام مصرى.. لا لأن الدينين أخذا فقط عن مصر القديمة، بل لامتزاجهما فى حياة الشعب وسلوكه.. مصر طبعتهما بطابعها الخاص.. فهناك (دين مصرى) سواء أكان مسيحية أم إسلامًا.. ومادام دينًا مصريًا فمصر هى الأساس، بكل تقاليدها وعاداتها وقيمها المنحدرة من عدة عصور وعدة حضارات.. فلا ننسى اليونان والرومان.. حقًا إنه لم يكن لهما دين تأثرنا به، ولكنهم تركوا مؤثرات فى حياة الشعب المصرى. فكل هذا معًا موجود.

•• وربما يعود لجذور مصر القديمة فى التدين والفلسفة أيضًا منذ أيام إخناتون وهيباتيا..

• نعم.. بالنسبة للإسلام، إخناتون أول الموحدين.. وبالنسبة للمسيحية لدينا الديانة المصرية الشعبية القديمة المتمثلة فى إيزيس وأوزوريس وحورس.

•• يمكن إذن أن نقول إن التثليث فى المسيحية أخذ من هذه الرموز، والتوحيد فى الإسلام أخذ من إخناتون بشكلٍ ما..

• ليس شرطًا أن يكون هذا حرفيًا.. إنه روح هذا الكلام، استوعبها الدينان الكبيران.

•• وهناك ظلال لديانات المصريين القدماء فى اليهودية أيضًا..

• أقصد أنه فى العادات والتقاليد المصرية الحديثة (كالأربعين للميت أو (الثالث) و (الخامس عشر).. كلها عادات مصرية قديمة.. كذلك (المقامات) والأضرحة التى تنشأ للأولياء.. إن عدد المسلمين الذين يترددون على (سانت تريز) فى شبرا بالقاهرة أكثر من المسيحيين وعدد المسيحيين الذين يتوافدون على السيدة زينب لا يقل عن المسلمين، ويترددون كذلك على الحسين.. وأنت قرأت للدكتور سيد عويس - رحمه الله - أنه حين فتح صندوق الإمام الشافعى، واطلع على ما به من رسائل وجد بعضها لمسيحيين مصريين!!

إنها جذور واحدة.. وامتزج الدينان بالحياة المصرية فصهرتهما فى بوتقتها وأخرجت منهما ما يمكن تسميته (بالدين المصرى) أو التدين الشعبى.

•• كنا قد تعرضنا لمسألة توصيل التراث.. أهى مكمن الصعوبة أم التراث نفسه؟!

• مناهجنا فى تعليم اللغة العربية والتراث الإسلامى على مدى نصف قرن تقريبًا أثمرت الفكر السلفى. وفى ظنى أن الضحية الأولى له هى الإسلام.

•• كثير من تيارات الفكر السلفى تعود إلى (الخوارج) على وجه التحديد لا رأى (الجمهور) من المفسرين والفقهاء.. فحينما كان الإسلام يطبق بنقائه أيام النبى والصحابة كان يباح ضرب الدفوف، والفرح فى مناسبات الزواج وغيره.. وكان النبى يستقبل النساء ويتحدث إليهن ويعظهن. وهذا ممنوع فى زماننا الحديث لدى بعض أدعياء التدين!

• لقد نشرنا بأحد أعداد مجلة (القاهرة) نصًا مجهولاً لأخى الإمام أبى حامد الغزالى، وضعنا له عنوان: (تكفير التكفير) يكفِّر فيه الذى يكفِّرون الغناء.. ويقصد أخاه أبا حامد. فانظر كيف كانت الحضارة الإسلامية فى ازدهارها: يختلف الأخ وأخوه إلى هذا الحد وتظل العلاقات الإنسانية قائمة ووطيدة.

إننا نعانى من فقدان وعى بعض الناس بالتراث.. فهم يأخذون من تراثنا ما يعبر عن عصور الانحطاط لا الازدهار. بينما الإمام الغزالى نفسه ألَّف كتابا فى مصر حينما زارها: إسْتُفْتِىَ فى قضايا الأقباط وعقيدتهم، فوضع كتابا من أجمل الكتب يناقش إنجيل يوحنا مناقشة على مستوى رفيع: فى أدب الحوار، والمنطق والإقناع. هذا الكتاب لا أحد يعرف عنه شيئًا.

•• حبذا لو كانت هناك وسيلة لنشره، ليفيد منه الناس..

• سأنشره فى مجلة القاهرة.

•• لو نقارن بين موقف بعض الجماعات المتطرفة التى تعتدى أحيانا على دور العبادة وتسفه أفكار الآخرين، وبين موقف الفاروق عمر

حينما رفض أن يصلى فى كنيسة بيت المقدس، حتى لا يتخذها المسلمون حجة لضم الكنائس إليهم وتحويلها إلى مساجد.. لو قارنا بين هذين الموقفين سنجد بونًا شاسعًا..

- أؤكد لك أن الضحية الأولى للإرهاب باسم الدين فى مصر ليست الدولة، ولا الأقباط، وإنما هو الإسلام، حاليا، وليس على المدى البعيد.. فالوضع فى أوروبا الآن أنه إذا لم يكن عداء سافر للإسلام، فهناك - على الأقل - خشية وحذر وتوجس، لدى الرجل العادى، نتيجة أفعال هؤلاء الناس الذين صوروا الإسلام مرادفًا للقتل والإرهاب.

(لا عذر.. بعد الرواد!!)

- ●● لو عدنا مرة أخرى لما طرحته فى البدايات عن شعراء عظماء قرأت لهم أمثال: بشار بن برد وأبى نواس وديك الجن ومسلم بن الوليد وابن الرومى وأبى تمام والمتنبى وجرير والأخطل....

- ... وقد جاء المحدثون فى نهضتنا العربية أمثال طه حسين والعقاد فأعادوا تقديم هذه الشخصيات العظيمة فى ثياب عصرية.. فليس هناك من لديه عذر فى عدم قراءة ابن الرومى وكذلك أبى نواس بعد الكتابين اللذين وضعهما عنهما العقاد، ولا المتنبى الذى طبع ديوانه عدة مرات.. بالإضافة إلى معركة شهيرة بين الشيخ محمود شاكر وطه حسين حوله.. وكلاهما أصدر عن المتنبى كتابًا.. وحدثت معركة «جميلة» بين الاثنين.. ولا أحد يستوعب التراث الحقيقى من خلال العمليات النقدية المتراكمة!!.

•• ... إذا كنا نسلِّم بأنهم عظماء هكذا، ويرجع تاريخ بعضهم إلى أكثر من ألف عام.. فهل نالوا إنصافًا فى الاهتمام العالمى أمام أمثال شكسبير وجوته وشيللر وغيرهم من الأدباء العالميين الذين ربما أضافت إليهم السياسة بعدًا آخر أكبر مما هو واقع فنى؟!

• حينما نرى اليوم (القناة الثالثة) بالتليفزيون الفرنسى تقدم برنامجًا جديدًا اسمه: (أكبر كُتَّاب القرن العشرين)، ونجد أول حلقة قدموها عن نجيب محفوظ.. يجب أن نقرن هذا النشاط بنشاط مماثل هو أن جمعية النقاد البريطانيين أعطت جائزتها هذا العام لنجيب محفوظ أيضًا. والبروفسور الراحل جاك بيرك هو الذى ترجم المعلقات.. بل القرآن الكريم نفسه تُرجمتْ معانيه فى اللغة الواحدة - كاللغة الفرنسية - خمس مرات.. وجامعة كمبردج تقدم مجلدات مسلسلة عن (الآداب العالمية) نال فيها الأدب العربى مجلدين كبيرين..

بالتأكيد كان يمكن أن يضاعَف هذا النشاط عدة مرات لو أننا أيضًا كنا معنيين بتراثنا.. لكننا - للأسف - غير معنيين به كما ينبغى.. إنما نحن نأخذ من كل بستان زهرة...

•• لقد عرفناه من خلال المستشرقين فى العصر الحديث!!

• ... إننا ننتقى أسوأ الأزهار السامة فى التراث، وكما أن الأوروبيين لديهم أزهار سامة فى تراثهم، فلدينا كذلك.. وبعضنا يأخذها ويشيعها كأنها عقائد، نهتم بالقشور، ونترك الجوهر.

والمعروف أن عصور الانحطاط تهتم بالشكل: أتدخل الحمام بالرجل اليمين أم بالرجل الشمال؟!. زواج الإنس بالجن جائز أم غير جائز؟! هذه التخريفات حدثت أيضًا لدى الأوروبيين حينما كانوا منحطين. فقد كان الرهبان فى القسطنطينية مغموسين فى مناقشة (جنس الملائكة) أهم ذكور أم إناث؟!.. فدخل عليهم محمد الفاتح، وبمجرد أن طرق بابهم دخل.. لم يقاومه أحد.

فحينما تنحط الحضارة وتتخلف إلى درجة البحث فى الخرافات يرى الغازى الأجنبى ثغرة ينفذ منها. ولدينا - كعرب - عدو أجنبى عمره خمسون عامًا - غير من قبله من الأعداء الأجانب - إنه قاعد لنا، وهو إسرائيل!!

فحينما تحدث مشكلة كأزمة الكويت، فهى ثغرة تتسع حتى تصل إلى (الشرق أوسطية) و (التطبيع).. إلى آخر الجرائم التى تعرفها.

(المتعصب.. إنسان جاهل!!)

•• هنالك تساؤل ربما نكون قد تعرضنا له بشكلٍ ما، لكن يمكن الاستفاضة فيه، وهو هذه المعادلة الطريفة - وليست الصعبة - أن كثيرين من أهل القلم غير المسلمين يحفظون القرآن ويستشهدون به فى مواقف بعينها، كما هو مأثور عن مكرم عبيد، وكان يستشهد به أمام المحاكم فى مرافعاته على أنه حق وصدق وحجة.. كيف إذن يوفِّق هؤلاء المفكرون بين اعتقاداتهم الدينية الأصيلة وبين حفظ كتاب لا يعتقدون فيه؟!.. ألم تقابلك مشكلة فى هذا الشأن؟!

● لا.. أنا لم تقابلنى مشكلة هنا، لأن القرآن بالنسبة لى - والإسلام كله - ثقافة وحضارة.. الجانب العقيدى، وسنى سبعة عشر عامًا، استيقظت على عالم آخر من المعرفة لا يجعله بالنسبة لى مشكلة.

فالأديان ثقافات كبرى فى تاريخ البشرية.. وبالتالى ما أجده فى القرآن - أو يجده غيرى - من حكمة، وموعظة حسنة، وخلق نبيل وقيم رفيعة ينبغى التمسك بها، واتخاذها حجة فعلاً.

عند المتعصبين فقط - ولم يكن مكرم عبيد واحدًا منهم - يصطدم هذا الاستشهاد بالعقيدة الدينية. ولكن المتعصب إنسان جاهل. ولا أعتقد أن الجاهل قرأ القرآن.

●● هاجمنا فن النحت والتمثيل فى العصر المسيحى ثم الإسلامى.. وبالتالى تخلف العرب فى هذين المجالين، ولم يواصلوا رحلة المصريين القدماء العظماء.. أتعتقد أننا خسرنا الكثير بهذا الموقف؟! كيف يمكن معالجة الانقطاع الحضارى الطويل الذى نعيشه فى عصرنا الحديث عن عصورنا السابقة المتقدمة؟؟

● رأيى أن تأويل المؤولين وتفسير المفسرين هو الذى أساء إلى مفاهيم الإسلام والمسيحية عن النحت والرسم، هذا الأمر لم يحدث فى أوربا. فحينما بدأت تستيقظ من العصور الوسطى إلى عصر النهضة صمم مايكل أنجلو قبة كنيسة القديس بطرس فى قلب روما، بالفاتيكان، وهو الذى أقام التماثيل العظيمة: وأشهرها تمثال موسى.. لكننا كنا نمر بكبوات.. فأيام مصر القبطية كان يجثم علينا

الاحتلال الروماني. وفي العصور الإسلامية التالية ظل يحتلنا الأتراك خمسمائة سنة.. وهم أصل التخلف، وجعلوا الإسلام كما لو كان ضد الحضارة، فحدث ما حدث.

وهذا الانقطاع بدأ ينقشع في بداية العصر الحديث مع محمود مختار وزملائه حتى اليوم. فيمكن أن نختصر طريق الحضارة، وليس ضروريًا أن نمر بنفس المراحل التي مر بها الغرب.

•• هناك مصطلح يتردد كثيرًا هو لفظ (الأقباط).. وهو من (قبط) و (جبت) و (إجبت) كما يطلق بالألمانية على مصر.

• كما يقولها الصعايدة، لا الألمان!!.. العرب حينما فتحوا مصر نطقوا الكلمة كما ينطقها الصعايدة تمامًا (الجبت).. وأصلها (ايجيبتوس) باليونانية، أي: مصر.. فالمصريون هم الأقباط..

•• سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين..

• طبعًا.. ولكن العرب لكي يميزوا بين القبطي النصراني والقبطي المسلم حافظوا على الاسم القديم للمصريين وهو (الجبت).. حافظوا عليه بالنسبة للمسيحيين.

•• أي خصصوه بدل تعميمه.

• نعم.. أصبح الاسم يخص المسيحيين المصريين وحدهم. وأي عودة أكاديمية تاريخية إلى الموضوع لن تفيد. لأنه صار في العرف العام أن الأقباط هم المسيحيون المصريون.

•• يمكن أن يستغرق تغيير هذا المفهوم مائة عام مثلاً، حتى يستقر بمعناه الأصلى الصحيح.

• ولماذا يتغير؟!

(عبد الرحمن.. مجرد فرد!!)

•• هناك ادعاء بأن الفلسفة صناعة غربية لا يملكها العرب، بينما استأثروا بالديانات.. أترى صحة هذا الادعاء؟! أيمكن تجاهل دور مصر القديمة وجهود الآشوريين والبابليين والمسيحيين والمسلمين فى هذا الصدد؟!

● الفلسفة كلها نشأت حول الأديان.. إما بجانبها أو فى مواجهتها. فاليونان - كنقطة انطلاق - نشأت الفلسفة لديهم بهذا المفهوم: حوار مع الأديان بالسلب أو الإيجاب.. وبالتالى لم يتخلف المسلمون عن الفلسفة.. غاية ما هنالك أن الحضارة العربية الإسلامية قطعت الصلة بينها وبين العصر الذى سمى (عثمانيا).. فى ذات الوقت بدأت النهضة الأوربية.. ودفع ثمن هذه المواجهة شهداء عظام، مواكب كثيرة من شهداء العلم والفلسفة.. والفلسفة الغربية هى الحضارة الغربية كما تنعكس على العقل.. وكل ما نستطيع عمله - كعرب - أن نكون على حوار نقدى مزدوج مع العقل الغربى ومع تراثنا أيضًا. هذه نقطة الانطلاق، أما الانبهار بالغرب، أو الانبهار بالتراث فلن يصنع فلسفة.. وأرى أن رجلاً عظيمًا كعبد الرحمن بدوى، فضله الحقيقى أنه أقام فى عمله الموسوعى الكبير

هذا الحوار. ولكن عبد الرحمن بدوى فرد، وليس تيارًا، ولم يخرّج تلامذة يشكلون تيارًا.

•• اتعده فيلسوفًا؟؟

• نعم.. أعده فيلسوفا..

•• وزكى نجيب محمود؟؟

• هو أيضًا فيلسوفـ

•• الدكتور زكى نفسه قال إنه ليس فيلسوفًا، قال إنه مفسر للفلسفة.

• هو فيلسوف على قدرنا!! على قدر المرحلة الحضارية التى نمر بها، ليس كل فلاسفة الغرب فلاسفة. بعضهم شراح عظام. ابن رشد نفسه شرح أرسطو، أحد أكبر شراحه، وهو فيلسوف حقيقى. لأن الشرح لا يخلو من فكر الشارح.

لكن أعتبر أصالة الفيلسوف لدى عبد الرحمن بدوى أكثر منها عند زكى نجيب محمود، فزكى نجيب كاتب أولاً، ليس فيلسوفًا أولاً. هو ناقد أدبى وكاتب من كتاب الحياة العريضة.

•• «مفكر تجريدى».. أظنه مصطلحًا دقيقًا فى حالته..

• لا.. هو مفكر وكاتب. أكثر منه فيلسوفًا.

•• على المستوى الأدبى مازال استلهام التراث لدينا لا يتعدى القشور.. ما تقييمك لمحاولات الاستلهام هذه؟! كيف ترى الشعرة

الدقيقة بين السطو والاستلهام والاستيحاء والاقتباس والتأثر والتضمين...؟! أهنالك نماذج بعينها يمكن التوقف عندها فى هذا الشأن؟؟

- صلاح عبد الصبور مبدع.. التراث يحضر فى عمل صلاح كحاجة ملحة من داخل العمل الإبداعى.. لا ينظم الحادثة التاريخية شعرًا، وبالمناسبة شوقى وقع - أحيانًا - فى هذا المنزلق. لكن شوقى تعود إليه الريادة فى المسرح الشعرى، وشعره الغنائى فى مسرحه أجمل من شعره الغنائى العام: القصائد الغنائية المستقلة. كان ينظم أحيانا المشاهد التاريخية شعرًا.. وهناك فارق كبير بين إعادة إنتاج التاريخ، وإبداعه، أنت حينما تستلهم التراث تبدعه، لا تعيد إنتاجه.. تجعله ينطق بما لم ينطق به فى الزمن القديم، بل ينطق بلسان الزمن الحاضر، هذا ما فعله صلاح عبد الصبور ولم يفعله - مثلا - على قدر ما قدم من إنجازات على أحمد باكثير. فباكثير حينما كتب (إخناتون ونفرتيتى) كانت الأهمية القصوى لهذه المسرحية هى الشعر المرسل الذى صيغت فيه. فكان رائدًا لحركة الشعر الحر أكثر منه كاتبًا مسرحيًا استلهم التاريخ، أو استلهم التراث. فى كثير من مسرحياته الإسلامية هو ينظم التاريخ.. أدونيس أو محمود درويش يبدعان التاريخ، ويبدعان التراث.

وأول مادة تراثية فى يد الشاعر والناشر هى اللغة. إنها تراث حى متجدد.. إلى أى مدى يبدع فى اللغة؟.. ثم الموضوع.. فألفريد فرج

كتب عن سليمان الحلبى. هى حادثة صغيرة جدًا فى كتب التاريخ، لكن عندما صاغها ألفريد فرج أبدع التاريخ.. مثل (الزير سالم) فيها إبداع للتاريخ.

لكن هناك من يستخدمون بعض الإشارات التراثية، أو بعض المشاهد فى التراث استخدامًا وظيفيًا: إسقاط الماضى على الحاضر: يريد أن يقول (جمال عبد الناصر) ولا يستطيع، فيسميه (قراقوش) أو (كافور) أو غيرهما.. وتجد المسرح المصرى فى الستينيات ديكوره جميعًا من العصر المملوكى، والموضوع هو السلطان: غائبًا، أو حائرًا، أو محاصرًا بحاشية فاسدة، أو عاجزًا، أو رجلاً طيبًا.. والسوار حول المعصم هو هذه الحاشية الفاسدة، والمقصود هو جمال عبد الناصر.. ستجد المسرح المصرى فى الستينيات كله هكذا.

وتوفيق الحكيم بالذات مثل مهم جدًا لاستخدام التراث.. هو يوظف التراث الإنسانى: اليونانى، مثل (بجماليون). لكنه لم يضف جديدًا. و (أوديب) استخدمها هو وباكثير.. ولم يضيفا إلى الأسطورة اليونانية أما (ياطالع الشجرة) فقد استمد الحس الشعبى، وجعل منه مسرحًا مصريًا حقيقيًا معاصرًا وحيًا، وفيه استلهام مبدع للتراث.

التراث والفن قضية كبيرة جدًا، لأنه لا يقتصر على الكتابة الشعرية أو المسرحية، فنجيب محفوظ فى (أولاد حارتنا) استلهم التراث الشعبى بمعنى التبس على أذهان الكثيرين، فظنوه يكتب

قصص الأنبياء. لا.. إنه قرأ فى قصص التراث التى تبدأ بالقول ثم القصد وتأثر بالإيقاع فقط، استلهم إيقاع قصص الأنبياء: «أول ما نبت» ولا يقصد الكتابة إطلاقًا عن الأنبياء، أنه استلهم جزئيتين أساسيتين التراث الفرعونى، فى صياغة شخصية الجبلاوى. فالجبلاوى هو الفرعون فى المخيلة الشعبية، ليس على حقيقته. والمخيلة الشعبية هذه تكونت من ذكر فرعون فى القرآن الكريم، وفى التوراة، ومن الأمثلة الشعبية عن فرعون وموسى، وهى كثيرة.

فنجيب محفوظ ثَبَّتَ المشهد التراثى الشعبى عن شخصية الفرعون الذى يتوحد فى الملك والإله: أكبر ديكتاتور فى الدنيا.. كتبها عن عصر جمال عبد الناصر، وفى مخيلته أن عبد الناصر هو رمسيس الثانى، فرعون قوى وقادر وباطش بلا نهاية. ويكمل المؤلف بإيقاع قصص الأنبياء.. لا يقصد الرسول ولا عيسى ولا موسى.. وإنما يقصد فكرة القص التراثى لحدوتة الأنبياء.. وفى مواجهة فرعون كان هناك تجربتان أساسيتان: التجربة الدينية، والتجربة العلمية.. من أقام حوارًا باسم (الحارة) مع فرعون هو: الدين والعلم. فالدين جاء بعدة أشكال، والعلم هو شخصية عرفة.

•• والشخصية الثالثة فى الرواية؟!!

• لا ثالث.. موسى وعيسى ومحمد لديه شخصية واحدة.. ما جعلهم (ثلاثة) فى طريقة قص نجيب محفوظ هو فكرة قصص الأنبياء أى البناء. والقضية التى أثيرت حولها قضية الدين، لكن شخصية رفاعة وقاسم وجبل شخصيات خيالية، مقصود بها كيفية محاورة

الرؤية للحارة والفرعون. وعرفه طرف آخر.. فهناك ثلاثة محاور فى الرواية: الجبلاوى: فرعون المخيلة الشعبية، وجبل ورفاعة وقاسم: هم جميعا شخصية واحدة، فرض أسلوب القص التراثى على نجيب محفوظ أن يجعلها ثلاثة.. لكن الفكرة واحدة: هى الحوار الدينى مع الحارة والفرعون.. وعرفه هو المحور الثالث.

وماذا يملك الجبلاوى؟!.. لديه كتاب من الأسرار لا يريد أن يمسه أحد.. ومشكلة الحارة التى جعلت الحكاية تدور حول (كتاب) كل من حاول الاقتراب منه يموت أو يطرد، كأدهم مثلا.. يطرد من رغد الجبلاوى. الكتاب هذا هو (الدستور).. فما كانت تفتقد إليه مصر فى العصر الذى يصوره نجيب محفوظ هو الحريات. وهذا هو المختبئ لدى الجبلاوى، ولذلك فالرواية فيها كتابان: كتاب عرفه، وكتاب الجبلاوى وكتاب عرفه حاول قطاع الطرق من الفتوات الحصول عليه، فسرقة (حنش) وخرج به بعيدًا عن الحارة، وبدأ شباب الحارة فى الخروج إليه، والالتفات حوله، للعودة مرة أخرى للحارة، لإعادة الحرية والعدل، وهما تعبيران يتكرران كثيرًا فى (أولاد حارتنا).

وهذه الرواية ـ ببساطة ـ مكتوبة عن واقع مصرى معاصر، استلهم نجيب محفوظ فيه التراث الشفوى الخيالى، وقدم هذه الرواية التى ـ لسوء الحظ ـ ووجهت منذ البداية بتفسير لا علاقة له بفنها ولا بمرادها. وشاع هذا التفسير لدرجة أن أصبح فى الهواء تتنفسه الناس. فكانت المحاولة الشريرة لاغتياله.

•• على مستوى آخر فى التعامل مع التراث.. هناك استلهام التراث، استيحاء التراث، السطو على التراث، وتزييف التراث، والتضمين.. أشكال مختلفة.. ما تقييمك لبعض المحاولات الروائية الجديدة بالنظر إلى مثل هذه التقسيمات فى التعامل مع التراث؟!

• التضمين: إذا قيل مباشرة إنه تضمين.. ففى القصيدة كان صلاح عبد الصبور أحيانًا يقتطع بيتًا من الشعر الفرنسى، من بودلير فيكتب أنه أخذه. وإذا كان النص الأدبى يذكر هذا التضمين صراحة وينسبه إلى أصحابه، فلا ضير فى هذا.

أحيانًا لا يتحمل الشعر هذا الوزر الأكاديمى، فلا يطلب من القارئ أن يراجع فلانًا وفلانًا، أو كتاب كذا وكذا.. فيهمل الإشارة إلى هذا التضمين.. مثل أدونيس حينما يرجع إلى النفرى أو مصطفى صادق الرافعى.. ويمكن أن يغتفر هذا إذا كان بناء القصيدة أو الرواية أو القصة واضحًا ملكيته الكاملة لصاحبه، لا لبس فيها ولا شك. لأن التراث هنا مجرد عنصر فى البناء.. هناك خامات متعددة للبناء، من ضمنها خامة اسمها (التراث).. إذا كانت الصنعة النهائية تُكْسِب صاحب العمل ملكية كاملة فى (الشهر العقارى) فلا عيب فى هذا، فهو مبدع.. وإن لم يكن فكما تقول: هو تزييف أو سرقة أو تضليل، إلى آخر هذه الصفات.

•• هناك من يرى أننا عالة في معالجاتنا النقدية على أجدادنا القدماء: أمثال حازم القرطاجنى، وابن الأثير، وابن قتيبة، والمبرد، والزمخشرى، والجاحظ.. وغيرهم.. هل نحن كذلك فعلاً أم أضفنا إليهم؟ أتستطيع القول بأننا قدمنا مدرسة نقدية عربية حديثة؟!!!

• نسيتَ أبا هلال العسكرى!!.. وليس مطلوبًا منا مدرسة نقدية عربية حديثة.. المطلوب منا مدرسة نقدية فقط.. المطلوب منا (نقد). مَنْ يترجمون مصطلحات أجنبية هم أنفسهم كمن ينقلون مصطلحات من كتب العرب القدامى.. النقد العربى القديم تعرض لصياغات أكاديمية ممتازة، كالنقد المنهجى الذى تحدث عنه الدكتور مندور، فقد تعرفنا على تراثنا النقدى من مندور، وقبله طه حسين، ومن قبلهما وبعدهما.. كالدكتور غنيمى هلال، وأساتذة النقد فى كليات الآداب ودار العلوم: قدموا لنا تراثنا (مُشَفًّى).. هذا النقد خدم الأدب العربى القديم، لكنه لا يستطيع أن يقدم لنا الآن شيئًا. لا يعطينا سلاحًا نفهم به رواية لنجيب محفوظ، لأنها لم تكن موجودة فى ذلك الزمن. ولأن شعر حجازى لم يوجد فى تلك الأزمان.. هذه الفنون الأدبية الجديدة تحتاج إلى أدوات نقدية جديدة.

كان يغفر لنا فى بداية هذا القرن أن نستخدم مصطلحات المدارس الأجنبية: الرومانسية، الكلاسيكية، الواقعية.. وهكذا.. ومن الممكن ألا يكون عندنا شيء من هذا القبيل. لقد كنا مضطرين: طه

حسين كان مضطرًا للتعامل مع ناقد مثل برونتيير، والعقاد كان مضطرًا للتعامل مع هازلت، ورشاد رشدى مع إليوت، ولويس عوض مع كودويل.. وحتى محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس حينما قدما المدرسة الواقعية الاشتراكية لنا قدماها بمصطلحاتها فى الخارج.

أما الآن، بعد أن تراكم لدينا التراث الأدبى فى سائر الأجناس الإبداعية، فلم يعد لدينا الحق فى أن نكون (سكرتاريا) لأمثال (بارت) و (تودروف) أو غيرهما.. المطلوب أن نستخلص من تجربتنا الأدبية المحلية أدواتنا النقدية.

هذا الأمر لا يتم إلا بفريق عمل. لأن ناقدًا بمفرده لا يستطيع القيام بهذا العبء. لدينا الآن حوالى مائة عام من التراكمات: فى القصة القصيرة والرواية والمسرح.. آن الأوان لفحص هذا التراث الواقعى كله.. ونرى المسار الرئيسى للحركة الأدبية فى بلادنا. كل بلد فيه مسار رئيسى، فيه سياق لأدبه. فالسياق الرئيسى فى اللغة الفرنسية هو الذى قدمه إلينا البنيويون. وليس من المستساغ أن أجلب البنيوية لأطبقها فى مصر.. لا تفيد. وللأسف الشديد أن المدارس المسماة حديثة هذه، نلتقطها لحظة احتضارها فى الغرب. تموت هناك، ونحييها نحن هنا!! وحين نحييها هنا نفسد الخلق والإبداع لدينا، نغرى الأجيال الجديدة بكتابة (أشياء) هى لا تحسها والناقد يكتب (أشياء) لا تصل إلى الجمهور.. يرسمون حسابات مثلثات ودوائر!!

فلا يتابعهم الجمهور.. وبالتالى تتمزق الدورة الأدبية التى تتكون من النص، والنقد، والقارئ.. لأنهم يتعسفون فى فرض مصطلح ليس ثمرة هذه اللغة: لغتنا، ولا ثمرة سياقها فعلينا أن نكتشف سياق الحركة الأدبية الذى أسميه: المسار الرئيسى للحركة الأدبية العربية الحديثة.. ثم المسارات النوعية للأجناس الأدبية: القصة، الرواية، المسرح. ما المصطلحات التى نستطيع إطلاقها من التجربة بسلبياتها، وإيجابياتها، وأيضًا بتفاعلها مع الخارج، (عودة الروح) أو (أهل الكهف) كتبهما توفيق الحكيم بعد عودته من فرنسا، واطلاعه على طرائق كتابة الرواية والمسرح. وبعدها جاء نجيب محفوظ، يوسف إدريس، محمود البدوى، يحيى حقى.. حتى أحدث كاتب. لابد أن نرى ما فعلوا كمبدعين. لأن الأديب مهما تأثر بالخارج فهناك ثوابت أساسية محلية لا تتغير: اللغة.. فنحن نكتب بالعربية، وهذا عنصر محلى. ونكتب عن محمد وأحمد وحسين، وهذا عنصر محلى، نكتب عن حريق القاهرة، أو مصرى أحب شامية.. فالحدث هنا عنصر محلى.

هذه العناصر المحلية لعبت دورًا فى تغيير ما وفد إلينا، أو ما تلقيناه من الخارج. هذا على صعيد الإبداع. ولابد أن يحدث هذا على صعيد النقد: أن أقرأ هذه الأعمال خلال مائة سنة، وأستخلص ما يناسبها من أدوات ومصطلحات نقدية. فحين أصنع القالب النقدى لا أتعسف.. فيصبح القياس سليمًا، والقيم المعيارية سليمة. لاستخلاص القيمة الأدبية.

•• حظ الأجيال الجديدة من معرفة جذورهم يقل عن جيلكم.. أينطبق هذا الحكم على جيلكم مقارنة بجيل الرواد السابق عليكم: أمين الخولى، الرافعى، طه حسين، أحمد أمين، عبد الوهاب عزام....؟!

• حظنا أفضل من الجيلين: مَنْ قبلنا ومَنْ بعدنا. لأن ما اكتُشِفَ من تراث خلال السنوات الخمسين الأخيرة أضعاف ما كان يعرفه الرواد. ومناهج التحليل الحديثة لم تكن متوافرة للرواد. فمن قَصَّرَ منا فهو المسئول عن تقصيره.

لكن الأجيال الجديدة لا يغفر لها - وقد توافر بين أيديها هذه الكثرة فى الكم - أن تكون بعيدة عن الجذور.. ومن لا جذور له لا مستقبل له.

•• هناك ملاحظة استنتجتُها من خلال متابعتى لبعض الروائيين من جيل الوسط - إذا صح هذا التقسيم - وهى أنهم فى تعاملهم مع التراث يلجأون إلى التراث الردىء واللغة الهابطة فى نثرنا العربى أيام عصور الانحطاط الفكرى والأدبى، وخاصة العصر المملوكى والعثمانى.. فلا يلجأون - غالبًا - لنثر الجاحظ أو ابن المقفع أو الحريرى أو من هم فى قامتهم من عظماء الناثرين...

• أيأتى هذا التأثر بالنسيج اللغوى فقط أم يأخذون شخصيات تراثية وأحداثًا تراثية؟؟

•• يأخذون هذا جميعًا.. لكنى أتوقف عند عنصر اللغة فقط..

• نسـيج العـمل الفنى أيأتى من أوله إلى آخـره كـالنسـيج اللغـوى القديم؟!.. لاحظت أن هناك تدخلاً من الكاتب..

•• يتدخل، لكن «القماشة» العامة هى النثر العربى فى زمن انحطاطه.

• يشـغلنى فـى هذه اللحظة العمل الأدبى ككل.. أينقل لى شيئًا عن رثاثة الحيـاة فـى عصـرنا لا فـى العصـر القـديم؟؟ هل يعكس بنيـة شـخصية منحطة لأحد الأبطال؟؟ حينما أجيب على هذا أصل إلى الحكم المناسب على هذا العمل أو ذاك.

•• كان لعدد من الشعراء، كصلاح عبد الصبور، تجربة فى الاقتباس من الكتاب المقدس.. أكانت «موضة» أم أنهم وجدوا حاجة ضرورية للإفادة من هذه الثروة؟! مـاذا أضـافت تجربتهم - من الناحية الكيفية - للإبداع الشعرى؟!

• هذه ليست «موضـة» وإنما كانت أحد عناصر ثورة الشعر الجديد. وهى لم تبدأ من مصـر، بل من العراق والشـام: بدر شـاكر السـيـاب وشـعـراء سـوريا ولبنان هم الذين بدأوا بـأسطورة تمـوز مـثـلا.. أى فكرة البعث بعد الموت. كان من الممكن أن يلتقط أحد المبدعين هنا فكرة أوزوريس: المـقـابل المصـرى لتمـوز، أو العنقـاء: الطائر الذى يجـوب الكون طوال العـام يبـحث عن أوراق الشـجـر الطيب ليـبنى عشـه، ثم يحـتـرق هذا العش - ومـعـه الطائر - ثم تهـرب من الرمـاد عنقاء جديدة تجوب الآفاق من جديد.. وهكذا..

هذه رموز وأخيلة وأساطير أفادت الشعر الحديث فى أثناء عملية التحرر من الشكل التقليدى، وفى الخيال - فوحدة التفعيلة فرضت على الشعراء المجددين وحدة الموضوع، أشبه ما يكون الأمر بالقصة القصيرة. هذا الموضوع القصصى والأسطورى كان متوافرًا جدًا فى التوراة. وقد لاحظ شعراؤنا هذه الظاهرة عن طريق (ت. س. إليوت) لا عن طريق قراءتهم للتوراة. لأن إليوت كان هو المثل البارز الذى استعان بالتوراة. فهم (إليوتيون) أكثر منهم توراتيون. وقليل منهم مَنْ رجع للتوراة نفسها ليقرأ نشيد الإنشاد وأمثال سليمان، ويتخذ من بعض الحوادث والأساطير رموزًا تفيد عملية تحرير القصيدة. ولذلك حدث هذا فى جيل الرواد فقط. فليس واضحًا لى فى جيل عفيفى مطر وأمل دنقل. بل إن أمل دنقل كان أقرب ما يكون للتراث الإسلامى. ومطر أقرب إلى التراث الشعبى جدًا: الطين فى القرية ولم يلجأ للأساطير الثقافية. والأجيال التالية: السبعينيات والثمانينيات ليس لهم علاقة بهذا الأمر على الإطلاق.

ومن هنا أرى أن استخدام الرموز التوراتية أو القرآنية - لأن هناك «إرم ذات العماد» التى استخدمها السياب - كل هذا كان عملية تحرير للقصيدة. ويتجاوز مرحلة التحرير هذه تجاوز الشعراء تلك الثقافة أيضًا.

●●●

سلامة.. ولويس

سلامة.. ولويس!!

يبدو لى أن أذهاننا اعتادت صنع دوائر فكرية متجاورة.. وكل دائرة إذا تذكرنا نقطة فيها استدعت الذاكرة سائر نقاطها حتى تكتمل!!.

فإذا ورد اسم (أحمد لطفى السيد) لحق به طه حسين وتلاميذه ذائعو الصيت وخافتوه. وحين نتذكر أمين الخولى لابد سنذكر تلميذيه: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) وعبد الله خورشيد البرى. وإذا تنبهنا إلى إبراهيم سلامة سنذكر تلوه محمد عبد الرحمن شعيب.

لكن «الالتصاق» الذى لا فكاك له فى ذهن الكثيرين أن سلامة موسى ثالث ثلاثة لابد أن يكتمل بهم؛ ويكتملوا به: لويس عوض وغالى شكرى!!

الأمر هنا ليس سلسلة التتلمذ بين الكبير والصغير، أو الشيخ والمريد، كما اعتاد الذوق العربى، بل يعود إلى ما هو أعمق من ذلك

فى أذهان الكثيرين: إنه (الانتماء الدينى وبعض النزعات التحررية، والعلمانية... وربما مفاهيم أخرى مغلوطة.

كرَّسَ لهذا الارتباط - الحقيقى أو المدَّعى - ما رآه الشيخ محمود شاكر يومًا ما من عداء هؤلاء المفكرين الثلاثة للهوية الإسلامية!!

والقول الفصل هنا يحسمه صاحب الشأن: عن خلفيات الارتباط هذا فى أذهان الناس، ومدى نصيبه من الصحة، وحدود التلمذة القائمة بينهم إذا كانت فعلاً..

•• كنت ملتصقًا بسلامة موسى ولويس عوض.. فماذا أخذت وماذا تركت منهما كأقرب اثنين إليك - حسب ما هو معروف؟!

• فى النصف الأول من عام ١٩٥٤ كنت عضوًا بأسرة تحرير مجلة (قصتى) - كما ذكرت من قبل - والتى ضمت صديقى أحمد بهجت.. فى أحد الأيام أعطانى أحمد بهجت كتاب (تربية سلامة موسى)، فأحدث هذا الكتاب انقلابًا فى حياتى على المستويات كافة: سواء من الناحية الفكرية أو السيرة الذاتية للرجل. شعرت بأن هذا النموذج الإنسانى الفذ موجود فى حياتنا، فكيف لا أعرفه؟! فبادرت إلى اقتناء كتبه كلها، ثم اتصلت به، وكان يسكن فى (٢ حارة جاد بالفجالة) بأحد البيوت العريقة، بالطابق الأول منه، وحين تحادثت معه هاتفيًا قال: أنا لا أترك المنزل بعد الظهر عادة وأهلاً بك فى أى يوم لزيارتى. وذهبت إليه، فاستقبلنى شيخ شاب: المظهر الخارجى شيخ فعلاً، لكنه حيوى ونابض بالنشاط فى جلباب أبيض، وحينما

دخلت كنت خفيض الرأس لوجود سيدات أمامى. فبادرنى بقوله: ليس لدينا «حريم»»!! فخجلت!! وولجت إلى غرفته الخاصة. وبدأت رحلتى الشخصية مع سلامة موسى.

وجدت فيه نموذجًا إنسانيًا فذًا. ليس المفكر فقط هو الذى بهرنى، إنما بهرتنى حياته كإنسان تفرغ للثقافة بكامل قواه.. وكان يشدنى إلى الكتب الجديدة. وفرح كثيرًا حينما عرف أننى أجيد الإنجليزية. ويحرص على تنبيهى إلى الكتب المهمة التى ينبغى أن أقرأها: الكتب التكوينية، فقرأت داروين وفرويد وهافلوك إيليس، وبعض أعمال تشيكوف وجورجى من مكتبته. وكنت أعرف بعضها قبل ذلك، وخصوصًا كتب الأدب. وقد كان حريصًا على أن أعرف العلم، وأقرأ فيه بما لا يقل عن قراءتى للأدب.

وفى منزله - الذى حرصت على زيارته كل أسبوع، ويستفسر هو عنى إذا غبت - وجدت يومًا الأستاذ خالد محمد خالد. وفى يوم آخر الأستاذ الشيخ الغزالى حرب، وفى مرة ثالثة الأستاذ محمود أبوريه. ولفتتنى هذه الظاهرة: أن مشايخ كثيرين يزورونه، ولكن حينما قرأت لهؤلاء جميعًا وجدت خالد محمد خالد داعية للديمقراطية وعظيمًا فى هذا الشأن عظمة غير عادية.

منذ ذلك الوقت - إلى الآن - تُعَدُّ قضية الديمقراطية هى الشغل الشاغل لخالد محمد خالد الذى توثقت به معرفتى، وأصبحت من أصدقائه. والأستاذ الغزالى حرب كانت له كتابات عن المرأة، ليت ابنه

الدكتور أسامة الغزالى حرب يبحث عنها وينشرها. أما الشيخ محمود أبو رية الذى كان أقرب أصدقاء طه حسين - أكثر من صداقته لسلامة موسى - فقد وجدت فيه عقلاً نيرًا إلى أبعد الحدود، وقد نشر كتابًا عنوانه: (الدين والضمير).. لكن هذا الكتاب اختفى فيما يشبه المصادرة السرية، ولم يعد موجودًا الآن.

النماذج الثلاثة للشيوخ هؤلاء، وصداقتهم لسلامة موسى تعنى أن الدين ليس عائقًا أمام الفكر وحريته، وأمام الضمير.. فهم من المفكرين بالغى الاستنارة. وكانت علاقة جميلة جدًا بين ثلاثة مشايخ مسلمين ومفكر مسيحى، تعلمت منها، وأسهمت فى تكوينى.

ورويدًا رويدًا بعدما توطدت علاقتى بسلامة موسى عرفت الجانب الآخر فيه، بعد أن فتح لى أبواب مكتبته، فقرأت فيها عيون التراث الإسلامى. كثيرون لا يعرفون هذه الحقيقة: يتصورونه (خواجه)!!. لقد كان قارئًا جيدًا جدًا للتراث، ويؤثر الجاحظ بالذات.

ووجدت لديه أمهات الكتب الإسلامية الكبرى: لأبى حامد الغزالى، وابن رشد، وأبى العلاء، وابن سينا. وقد فُجِعتُ بعد وفاته حين علمت من فاروق عبد القادر أن مكتبته كانت معروضة على سور الأزبكية، ويبدو أن هذا صحيح.

وكان يهمنى المجلات التى أصدرها، وأنفق عليها حتى باع كل أرضه التى ورثها، وكان لديه منها الكثير. أصدر عام ١٩١٤ مجلة اسمها (المستقبل) خرج منها ستة عشر عددًا، وأغلقها الانجليز.. ثم

أصدر (المجلة الجديدة) من سنة ٢٦ إلى ١٩٤٢، وتعطلت خلال هذه المسيرة بعض الفترات؛ لأن إسماعيل صدقى أغلق المجلات بجبروته. وهذه (المجلة الجديدة) لم يكن لديه نسخ منها ولا حتى كتبه!! لم يحتفظ منها بغير أربعة كتب!!. كان يكفيه أن تكون هذه الكتب والمجلات موجودة لدى الناس، وفى دور الكتب.

وقد عثرت على نسخ من المجلة الجديدة بعد بحث.. وقبل قراءتها لم أكن أعرف هذا العالم الرحب الذى يعيش فيه الرجل، لأن كتاباته صورة من حياته. لم يكن لديه ازدواجية بين الفكر والسلوك. كان مستقيم الخلق بالمعنى الحضارى: ما يفكر فيه هو الذى يسلكه والذى يدعو إليه.

- ●● قلت من قبل كلامًا متضاربًا مع هذا الحكم.. وذكرت أنه كان يتناقض مع نفسه أحيانًا: فهو يدعو لتحديد النسل، وأنجب ثمانية أبناء!!.. وهو متحرر اجتماعيًا، وتزوج زواجًا تقليديًا وهكذا..!!

- ● كان فيه التناقضات الموجودة بالمجتمع. لكن أفكاره التفصيلية وعالمه الفكرى الذى يعيشه ويقتنع به، لم يكن يكتب عكسه.. إذا اقتنع بفكرةٍ - ولو خطرة - يتحدث بها، وليكن ما يكون.

أما التناقضات الأخرى - الاجتماعية - التى يفرضها المجتمع على الفرد فكان يقع فيها.. فله كتاب مشترك مع طبيب، اسمه (ضبط التناسل)، وهو لم يكن يضبط التناسل. وغير هذه الأشياء البسيطة هو لم يعانِ من أية ازدواجية.. ما يفكر فيه هو بالضبط ما يسلكه.

فى لحظة أحسست أننى أفهمه أكثر حين أدرسه دراسة أكاديمية.. وبدأت فعلا قراءة كتبه قراءة نقدية، أى كموضوع للنقد، لا كصديق. وكتبت دراسة فعلاً سنة ١٩٥٨، وسلمتها للمرحوم فتحى خليل: زميلنا الكبير فى (روز اليوسف).. فجاء رأيه أننى مازلت فى حالة انبهار.. أى أن كلامى جاء موازيًا لنص سلامة موسى، لم أخترقه. فركنت هذه الدراسة تمامًا. ورحت أكتب من جديد.

وقدمت الدراسة الجديدة للدكتور أنور عبد الملك ـ كعينٍ أخرى ـ فلم يغير فيها سوى العنوان من (سلامة موسى وأزمة الضمير العربى) إلى (سلامة موسى فى نصف قرن).. وكان أنور عبد الملك مستشار الدار المصرية للكتب وهى دار نشر خاصة ملك الراحل لطف الله سليمان.

•• وعمل بها يوسف إدريس وإبراهيم فتحى والشرقاوى....

• نعم، كل هؤلاء الناس. وهى تقع مكان الدار القومية الحالية بشارع عدلى. وانتقلت التسمية الأولى إلى (دار النديم). فقدم الدكتور أنور كتابى ذاك إلى لطف الله سليمان، ووقعت عقدًا معه بنشر الكتاب نظير ثمانية جنيها، وكان مبلغًا ضخمًا أواخر عام ١٩٥٨.. ولم أحصل على هذا المبلغ، بل أخذت به كتبًا من الدار.

وفى يناير ١٩٥٩ قبض على لطف الله سليمان، فلم يطبع الكتاب. ولحسن الحظ كان لدىَّ نسخة أخرى. وبعد سنة من هذا التوقيت أى عام ١٩٦٠ أُعْتُقِلتُ أنا. وبعد عامين خرجت من المعتقل حاملاً

نسختي - بعد تنقيحها - إلى مكتبة الخانجي الذى رحب بها. ونشر الكتاب فى سبتمبر ١٩٦٢، أى بعد شهر من تسليمه، فى طبعة أنيقة.

أما سلامة موسى نفسه فقد اطلع على الدراسة قبل وفاته وقبل نشرها، فكتب لى رسالة كأنها تعليق عليها، ولكنها شكر أكثر من أى شىء آخر.

بعد ذلك أصبحنا كأننا ابن وأبوه. والدكتور شكرى عياد على صواب حين قال: إن سلامة موسى المعلم الأول لغالى شكرى. إنه لم يكن أستاذًا بالجامعة، ليكون له تلامذة مباشرون، فكنت أنا ذلك التلميذ المباشر.

وذات مرة قال لى: أتقرأ لنجيب محفوظ؟! فقلت له: نعم.. إنه صديقى، فقال: إنه كتب عنى فى الثلاثية. وحين سألت نجيب محفوظ عن ذلك قال: نعم.. إنه (عدلى كريم) صاحب مجلة (الإنسان الجديد) التى يتردد عليها كمال عبد الجواد. وحكى لى سلامة أنه أول من نشر لنجيب، وكان كتابًا بالانجليزية لمؤلف يابانى أمريكى اسمه (مصر القديمة).. قدمه سلامة إليه لترجمته فترجمه، ومنحه اشتراكًا لمدة عام مجانًا بالمجلة نظير الترجمة.

وفى أحد الأعوام قدم نجيب لسلامة رواية فى بعض الأوراق تحت عنوان (حكمة خوفو).. فقال له سلامة: أظن يانجيب أن الرواية المصرية لن تنشأ إلا إذا كتبها أزهرى. فسأله: لِمَ؟! قال: كى لا يكون عارفًا باللغات الأجنبية، وغير متأثر بالغرب فى طريقة كتابته للرواية.

وقد أرَّخَ نجيب محفوظ لعلاقته بسلامة موسى فى (قصر الشوق) حين تحدث عن علاقة كمال عبد الجواد بعدلى كريم لا رياض قلدس ورياض قلدس هو عادل كامل.. أما عدلى كريم فهو سلامة موسى أى استلهمه، وتدخل فيه خياله.. وليست هناك شخصية روائية تطابق الشخصية الواقعية.

وقد عرفت من سلامة موسى أن تلامذته أكثر مما نظن، من خلال محاضراته بجمعية الشبان المسيحية. وأيضًا عن طريق المجلة الجديدة. وأعتقد أن جيل التقدميين فى الأربعينيات خرجوا من عباءة سلامة موسى.

ولم يشعر بالمرارة بسبب الاضطهادات الكثيرة التى وقعت عليه: سواء من الحكومات أو الهيئات، أو حتى ممن ليسوا رجعيين جدًا وقد أحب كثيرًا حزب الوفد، وأخلص لزعيمه سعد زغلول.. لكن صحيفة (المصرى) لم تفكر أبدًا أن تستكتبه، أو تجذبه للعمل بها وكان يكتب فى (الكاتب المصرى) من خلال طه حسين الذى كان يحبه، ويستكتبه شهريًا بها.

وكتاب (تربية سلامة موسى) نشر أولاً فصولاً فى (الكاتب المصرى). وأول الثورة كان الوحيد الذى غامر، ورحب بها ترحيبًا كبيرًا، حين كتب: (من أحمس إلى جمال عبد الناصر)، وأرسل إليه أنور السادات حين إنشاء جريدة الجمهورية.. وكان سلامة حينئذًا كاتبًا كبيرًا ومشهورًا جدًا.. فعرض عليه السادات أن يعمل (رئيس

القسم الخارجى)!! فضحك سلامة موسى لتصغيره هكذا.. وشكر السادات، وذهب ولم يعد إليه!! فالتقطه حينها مصطفى وعلى أمين.. واستكتباه هو والعقاد وتوفيق الحكيم ليقدموا اليوميات بمائة جنيه فى ذلك الوقت: عام ١٩٥٣، وكان مبلغًا ضخمًا جدًا.

•• جريدة (الكاتب المصرى).. ألم تكن تصدر بتمويل يهودى؟!

• هى شركة يملكها يهود.. لكنها لم تتدخل إطلاقًا فى تحرير المجلة.. فكان طه حسين حرًا حرية مطلقة فى تحريرها؛ ولا يستطيع أحد أن يتدخل فى المجلة من قريب أو بعيد.. وكان الملاك هؤلاء مصريين يهودًا مثل شركة شيكوريل. فالمدير المصرى فى شيكوريل ليس معقولا أن ينظر إلى المال اليهودى فى الشركة على أنه حرام!!

•• ليست قضية الحرام هى المطروحة هنا، بل قضية الولاء الذى يفرضه المال على العاملين لصاحب المال؛ كما هو الحال فى الصحف التى يمولها المال اليهودى هذا الزمن، فتنطلق فى توجهاتها من انتمائها لليهود، ولكن بطرائق خفية غير صارخة.

• طه حسين لم يكن يسمح بتدخل أحد فى حياته وكتابته واختياراته ولو كان الملك نفسه.. لكن من الناحية التاريخية، شركة الكاتب المصرى كانت فعلاً شركة يهودية.

•• فإذا قلنا إن كل ما تحدثت فيه هو ما أخذته من سلامة موسى.. فماذا تركت منه؟!

• على صعيد المعرفة.. التراث الإسلامى والتراث البريطانى هضمتهما من لدى سلامة موسى.. لكن ما أخذته فى تكوينى هو: كيفية التفكير العلمى العقلانى.. وقضية العدل الاجتماعى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من تكوينى بواسطة تفكير هذا الرجل، ثم مفهومه للأدب والثقافة بعامة.. إنه لا فن للفن، ولا ثقافة للذة الشخصية أو المتعة الخاصة.. إنما الأدب والثقافة للمجتمع.. هو يسميه (الأدب المرتبط) ويقصد به (الأدب الملتزم). وقد ورد مصطلح (الملتزم) بعد ذلك فى الأربعينيات.

وأخذت منه أيضًا عدم ازدواج الفكر والسلوك، وشجاعته فى مواجهة الدنيا، ومواجهة السلطة أيًا كانت، بما فى ذلك سلطة الرأى العام لا سلطة الدولة وحدها. أخذت منه التفاؤل. وإذا ألغى التفاؤل، وأحبط المثقف، ووصل إلى حالة اليأس فلن يبدع ولن ينتج. والتاريخ من شأنه أن يعطى أملاً للإنسان، إن أفكاره لا تثمر الآن لكنها ستجد التربة الخصبة فى المستقبل لتثمر.. هذا ما أخذته.

لكن هناك ملامح لم أكن أستطيع أصلاً أن آخذها منه: مثل فكرة (الوطنية المصرية).. أنا لست ضدها، لكنى أرى أنه وجيله، مثل حسين فوزى وتوفيق الحكيم كانوا أبناء ثورة ١٩١٩.. وهى الأم الشرعية للوطنية المصرية، فكان من الطبيعى أن يكونوا فى هذا الإطار أما أنا فعشت حتى رأيت مصر جزءًا من أمة عربية واحدة.. فتبنينا - أنا وجيلى - هذه القضية الجديدة.

• • هذه الإقليمية - أو (الوطنية المصرية) كما تذكر - ألا يمكن أن تشير إلى ضيق فى الأفق، أو ضعف فى الخيال والطموح؟!

• الظروف التى وجدوا فيها هى ظروف الاحتلال البريطانى لمصر، والنشأة المشوهة جدًا للرأسمالية المصرية.. فهى لم تولد كالرأسماليه الأوروبية فى مواجهة الإقطاع، وإنما الإقطاعيون أنفسهم (تبرجزوا).. فلديهم القيم الزراعية والقيم التجارية، وهما معًا نسيج مشوه جدًا. وبالتالى لم يكن للبرجوازية المصرية هذا الأفق الذي نتحدث عنه: أن ترى نفسها جزءًا من مجموعة «المستعمرات» المحيطة بها، وهى البلاد العربية. ولم توحِّد كفاحها ضد الاستعمار.

والاستعمار الذى عمل على تجزئة وتكريس تجزئة الوطن العربى كان هو الحاضنة الشرعية لهذه البرجوازية.. لأنها (تبرجزت) عبر التجارة لا عبر الصناعة. فطلعت حرب جاء فيما بعد، أى بعد ثورة ١٩١٩.. كان مرحلة ثانية من مراحل الاستقلال. أما البرجوازية نفسها فلم تكن برجوازية قومية: لا فى مصر، ولا فى أى قطر آخر بجوارها.

إنها صدفة تاريخية أن جميع البرجوازيات العربية نشأت نشأة مشوهة.. هى مغايرة للنشأة المصرية لكنها أيضًا مشوهة.. فلم يوجد منها ما يجذب الرأسمالية المصرية لتفكر تفكيرًا عربيًا.. كان ذاك مستحيلاً.. فالاستعمار هو الذى وضع الحدود ومنع إختراقها. لا فى

الواقع، ولا حتى فى الخيال!! ومن هنا كان تصور جيل سلامة موسى تصورًا رأسيًا: مصر والسودان، أى من الجنوب للشمال، لكى يصل إلى البحر المتوسط.. فقال طه حسين بالمتوسطية: أى انتماء مصر للبحر المتوسط، وقال سلامة موسى (مصر أصل الحضارة).. وكتب العقاد: (سعد زغلول).. فثلاثة مفكرين كبار ليس من الممكن اجتماعهم على خيال واحد، إلا إذا كان خيالا اجتماعيًا أوسع منهم.

إنهم يرون منذ زمن الفراعنة حتى العصر الحديث تاريخًا رأسيًا أما التاريخ الأفقى، الذى يشمل التاريخ العربى: من الخليج إلى المحيط، فهذا جزء من تاريخ مصر، وليس جزءًا من تاريخ المنطقة: أى مصر الإسلامية، أى بين مراحل تطور هناك مصر الإسلامية.

•• أى أن مصر فى نظرهم ليست جزءًا من هذا التاريخ، بل هو جزء منها..

• تمامًا..

•• كانت هذه نقطة الاختلاف الأولى عن سلامة موسى..

• نعم.. ثم قضية الأدب.. فهو أقرب إلى محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ولويس عوض والماركسيين، أقرب إليهم فى تصور العلاقة بين الأدب والحياة.. ولذلك فقد كان معهم فى المواجهة التى حدثت عام ١٩٥٤ على صفحات (الجمهورية)، حينما كان لويس عوض المسئول الثقافى بها.. المعركة العنيفة التى حدثت بين عبد الرحمن الشرقاوى وطه حسين وعبد العظيم أنيس ولويس عوض

من جانب والعقاد من جانب آخر.. والتى كانت قضيتها: الأدب للأدب أم الأدب للحياة؟!

أختلف مع سلامة موسى ولويس عوض فى أن هناك فعلاً علاقة، لكنها ليست علاقة ميكانيكية.. الأدب جزء من الحياة، وبالتالى فهو نشاط إنسانى، لكنه ليس اختصاراً لأيديولوجيا فحين أقرأ قصة عن العمال فليس معنى هذا أن كاتبها بروليتارى أو أن هذه القصة ينظر إليها باعتبارها أدباً تقدمياً.. إن الإبداع الفنى له خصوصية.

سلامة موسى - فى تقديرى - لم يكن يعرف هذه الخصوصية.. كان يخلط بين الأدب والأيديولوجيا، أو يعتبر الأدب تعبيراً عنها.

●● يراه نوعاً من الدعاية للفكر والموقف السياسى..

● تقريباً.. وهذه نقطة مهمة جداً.. لأنى اشتغلت بالنقد الأدبى ولم أرَ أبداً هذه الرؤية، وأختلفُ مع محمود العالم وعبد العظيم أنيس.

نقطة الاختلاف الأخرى أن التفكير العلمى عند سلامة موسى كان نوعاً من البرود.. فهو بارد العقل جداً فى تناول القضايا ويرى لكل شىء أصلاً علمياً. وكان يتابع العلم كأنه متخصص أو عالم. وأنا أرى العلم إذا لم يتحول إلى فلسفة فليس كافياً. فليس هناك موضوعية مطلقة وحتمية. ولم يترك هامشاً واسعاً للإرادة الإنسانية، وللحرارة الإنسانية، والضمير الإنسانى.

●● ربما يعود هذا إلى عدم وجود ما سمى فيما بعد (فلسفة العلم) ثم استقرت بعد ذلك فلسفة العلم هذه، ودرست بالجامعات.

• قبل فلسفة العلم كانت هناك فلسفة. وبصفة عامة لم تقم للفلسفة قائمة إلا فى وسط العلوم، حتى لو لم تُسَم (فلسفة العلم) هناك فكر علمى.. وسلامة من دراسته لماركس وداروين وفرويد كان ابن تفكير أوربا فى القرن التاسع عشر: فكر الموضوعية المطلقة والحتمية التاريخية أو الطبيعية. فالذات لا يمكن إنكارها، حتى للعالِم. وليس هناك حتمية. ولم يكن لدىَّ حينذاك (الخزين المعرفى) الذى يجعلنى أفند رؤيته هذه.. لكنى كنت أشعر بالاختلاف العميق عنه فى هذه الزاوية. وتتحول هذه المفاهيم إلى وقائع حياتية بعد ذلك: فحين أقول بالاحتمال، لا الحتمية، فهناك فارق.. وكذا بين الموضوعية النسبية، والموضوعية المطلقة.

هذه المطلقات العقلية بدت لى كما لو أنها تحل محل الدين. إنه مطلق جديد اسمه العلم أو العقل. لكنه لم يتخلَ أصلاً عن المطلق.

•• أيمكن أن نقول إن موقفك العلمانى بدأ منذ ذلك التاريخ من ارتباطك بسلامة موسى؟؟

• زاد رسوخًا، واطمأننت إلى هذا الاختيار.

•• متى بدأ إذن؟

• بدأ فى منوف منذ دراستى بالمدرسة الإنجليزية. عرفت ما تعنيه كلمة (العلمانية) فى المدرسة الإنجليزية.. ولم أكن قبل ذلك أعرف معنى فصل الدين عن الدولة: أليست هذه الدولة من مجموعات

بشرية، وهذه المجموعات متدينة؟! فكيف نفصل؟!!.. وفهمت بعد ذلك أن الدين يتجرد من السلطة الزمنية، ورجاله يتحركون فى ميدان العقيدة والروح والأخلاق والضمير فقط.

والحقيقة أن المدرسة الإنجليزية هى الجذر الأعمق جدًا فى حياتى، بكل اتجاهاتى وميولى. لكن بعد هذا ترسخت أشياء، وزالت أشياء أخرى.

•• يرى كثيرون أن العلمانية يمكن أن تكون مناسبة فى حالة الديانتين: اليهودية والمسيحية.. لكنها ليست ممكنة بالنسبة إلى الإسلام الذى هو دين ودولة..

• على عبد الرازق رد على هذا الكلام فى كتابه (الإسلام وأصول الحكم).

وقبل الحديث عن لويس عوض أشير إلى أنه ابن طه حسين لا ابن سلامة موسى.. أقرر وأنا مطمئن حقيقة أنه للأول أقرب.

(المنبهر!!)

•• علاقتك بسلامة موسى أكانت علاقة المتلقى المسلِّم المنبهر أم علاقة النقاش والمحاورة؟!

• هو نفسه ينفر من رفيقه ويشعر بالملل إذا لم يناقشه.. حياته فى الحوار. وحتى طريقته فى التعليم طريقة حوارية: يعتمد على السؤال والجواب.

وقد كنت «عفريتًا» مشاغبًا.. وهو كان يحرص على الاختلاف كثيرًا فإذا أدلى بفكرة وأنا مستغرق وصامت، وأقول له: نعم.. فاجأنى بقوله: نعم.. لماذا؟!!.. إنه هنا لا يتأكد من استيعابى لكلامه فقط، بل يستفزنى أيضًا للحوار.

ولم أرَ عقلاً نقديًا فى المفكرين الذين عرفتهم معرفة شخصية إلا لدى طه حسين وسلامة موسى فقط. هذان الاثنان يمثلان فعلا ما نسميه العقل النقدى.. وهو عقل لا يتوقف عن الحوار مع نفسه، ومع الآخرين؛ حتى وهو يقرأ كتابًا يحاور مؤلفه أثناء القراءة.

•• هل من قبيل المصادفة أن تنتقل من التتلمذ على سلامة موسى إلى لويس عوض على وجه التحديد.. أم أن هناك دوافع بعينها؟!!

• أفاجئك أن أقول لك: إن هذا لم يحدث.. والتواتر الخاطئ الذى حدث هو أن الشيخ محمود محمد شاكر أثناء اختلافه مع سلامة موسى فى الستينيات كتب فى إحدى المقالات التى ضمت إلى كتابه (أباطيل وأسمار) عبارة فحواها أن سلامة موسى ولويس عوض وغالى شكرى يمثلون تيارًا قبطيًا فى الثقافة العربية.. هذه هى نقطة الانطلاق الطائفية التى ربطت بين الثلاثة. وهى مسألة كاذبة، ولا أساس لها على الإطلاق.

فلويس عوض أقرب إلى طه حسين، وأنا أقرب إلى التتلمذ على محمد مندور لا لويس عوض.. إنه صديق حميم.. لكن التلمذة شىء آخر، أنا لا أزوغ من علاقتى به.. إنها تشرفنى. وقد كانت هناك علاقة شخصية وحميمة بينى وبينه. لكن هذا شىء والتلمذة شىء آخر.

التلمذة: أن أجد لأسئلتى أجوبة عند المعلم؛ وأجد فى كلمات المعلم ما يدخل عنصرًا فى تكوينى.. بهذه المعانى أنا تلميذ لمحمد مندور لا للويس عوض.. وهنا ينهار الأساس الطائفى للمقولة من أساسه؛ خصوصًا إذا كان هؤلاء الثلاثة: سلامة ولويس وغالى علاقتهم بالدين ومفهومه غير وطيدة. هم جميعًا علمانيون، وعقلانيون، وبعيدون عن أن يكون الدين رابطًا بينهم.

•• ألا توجد - إذن - عناصر اتفاق بينك وبين لويس عوض؟!

• علينا أن نفض الاشتباك أولاً.. فينبغى ألا تُفرضَ علىَّ من الرأى العام فكرة أننى امتداد للويس عوض.. هناك من أراد أن يمدحنى فقال: ليس هناك وريث للويس عوض غيرك!! وهو لا يقصد هنا غير مدحى!! فقلت له: أنت تزعجنى جدًا بهذا الكلام.. وهو شخصية رفيعة المستوى.

هذا الانطباع الخاطئ انطباع طائفى.. سببه البعيد هذه العبارة التى صكها الأستاذ شاكر.. وكان فى مجال اتهامات طائفية للويس عوض وسلامة موسى.

أول خلاف لى عن لويس عوض هو النقطة التى يتصورون أنها تجمعنا.. أنا أولاً قومى عربى.. ثانيًا أجاهر بانتمائى للحضارة العربية الإسلامية، وهو ما يعد كفرًا عند لويس عوض. فكيف يمكن أن أكون تلميذًا له؟!.

أخذت من لويس عوض الصلابة.. وطبيعى أن يكون لدى الإنسان الاستعداد لتلقى خاصية موجودة فى شخص آخر. إنه رجل صلب،

حتى فى تعامله مع نفسه. فأنا مثلاً أقرأ ثمانى ساعات يوميًا حتى الآن.. وهذه صلابة. فمن أين آتى بهذه الساعات؟! فلا تسألنى.. لأنى قد أكون مسافرًا بالقطار إلى الإسكندرية وأقرأ ساعتين. والحصيلة اليومية لا تقل عن ثمانى ساعات.

وبالنسبة للكتابة، العكس هو الحادث.. فلا أكتب كل يوم، وحين أكتب لا أحصر نفسى فى عدة ساعات. لست مثل نجيب محفوظ الذى يكتب فى توقيت معين، ولعدد محدد من الساعات. فقد تنفتح شهيتى على الكتابة خمس ساعات متواصلة، وقد لا أستطيع الجلوس لها أكثر من ساعة، حسب طبيعة البحث أو المقال. فهو يستقر مكتوبا فى رأسى أولاً قبل إخراجه على الورق. وعملية الكتابة نفسها تبدو سهلة أو صعبة وفقًا لدرجة تمثلى للموضوع، ودرجة وضوحه فى رأسى. أخذت من لويس عوض هذه الصلابة فى التعامل مع نفسه، وأعتقد أنه هو نفسه أخذها من طه حسين.

●● إذن من هم تلاميذ لويس عوض فعلا؟!

● أخوه رمسيس أولاً.. أعتقد أنه أهم تلميذ له. فاهتمامات رمسيس الأدب الإنجليزى، ثم فكر النهضة الأوربية.. حتى فكرة المنشقين فى روسيا التى تناولها رمسيس مسَّها لويس عوض حين سفره إلى روسيا، ثم عاد إليها وكتب تحت عنوان (رحلة شرقية وغربية).

رمسيس يتمتع أيضًا بالذكاء، والجد فى التحصيل.. وهو أستاذ مهم.

•• ربما كانت هذه الاهتمامات بحكم تخصصه كأستاذ للغة الانجليزية بكلية الألسن، لا بحكم تأثره بأخيه..

• تخصصه هذا جاء فيما بعد.. إنه من البدء خريج قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، وتلميذ الدكتور لويس مرقص.. وكانت رسالته للدكتوراه عن الرواية الإنجليزية المعاصرة.

فدخوله القسم الإنجليزى - وهو شاب صغير - ثم حصوله على الماجستير والدكتوراه فى الأدب الإنجليزى.. كل هذا قبل عمله أستاذًا بالألسن.

•• ومَن التلميذ الثانى للدكتور لويس؟

• أعتقد أن رجاء النقاش، رغم خصوماته الفكرية خصوصًا فى قضية القومية، من تلاميذ لويس عوض.. وأنا ورجاء من جيل ينتمى للقومية العربية.. وأخذنا جميعًا العروبة من الناصرية. وأحببنا جوانب كثيرة فى الناصرية، لكن أهمها الجانب الأيديولوجى إنه لم يكن يتناقض كسعد زغلول وثورة ١٩١٩ مع القومية العربية.. عبد الناصر لم يتناقض معها. كان أحد قادتها الأفذاذ.

فرجاء النقاش وأمير إسكندر من تلامذة لويس عوض المعروفين ممن اشتهروا واشتغلوا بالكتابة. أما غير المعروفين فله تلامذة كثيرون من خريجى الجامعة بصفته كان أستاذًا بها.

ومن أهم ما أخذته من لويس عوض أيضًا النزعة شبه الأكاديمية والتحصيل المنظم الجاد الصعب، وهو السبب المباشر فى استكمالى

الدراسات العليا، وأن أحصل على الدكتوراه، لأوفر ما كان يسميه (الأدوات).. فقد كان يقول إن الدراسة الأكاديمية (عدة الشغل)

•• هناك سؤال قد نكون قد تطرقنا إلى بعض جوانبه أثناء حديثنا لكنا نعيد النظر إليه من زوايا أخرى أكثر صراحة عن سلامة موسى وهو أنه كان يوجه إليك عناية خاصة لم يوجهها لسواك ما الدوافع وراء ذلك؟! أهو الاتفاق الدينى أم رغبته فى خلق تلاميذ؟!!

• السبب - إذا صح أنه وجه لى اهتمامًا خاصًا - أنه وجد لدىَّ الاستعداد، فكان عليه أن ينميه ويحافظ عليه.

وفعلا لم يكن هناك من له علاقة مباشرة به غيرى.. وهو الذى صحبنى إلى موسى صبرى - وكان رئيس تحرير مجلة الجيل - حيث عملت لأول مرة فى حياتى بالصحافة.

•• ألا يعد موسى صبرى من تلاميذه؟!

• لا.. لكن من تلاميذه أنيس منصور.

•• إنه تلميذ العقاد.

• نعم.. لكن أنيس كتب عن سلامة حين وفاته يذكر هذا.

•• فى كتابه عن فقه اللغة العربية نسب لويس عوض لغتنا إلى أصل غير السامية.. ونسبنا - كذلك - كعرب إلى أصل غير أصولنا التى نعرفها وحفظها التاريخ.. وقد رد عليه هذه المقولات الدكتور البدراوى زهران أستاذ فقه اللغة.. ما موقفك من هذه الأحكام؟! وما رؤيتك لمبررات لويس عوض بشأنها؟!

• إننى لست متخصصًا فى علوم اللغة.. أنا أقرأ عن اللغة من ناحية علاقتها بالإبداع الأدبى.. سواء فى اللغة العربية أو الفرنسية أما فقه اللغة فلست متخصصًا فيه بأى معنى من المعانى. ولا أعرف السر فى الضجة الكبرى التى أثيرت حول هذا الكتاب، إلا أنه تناول اللغة العربية كلغة بشرية، تنطبق عليها كل القوانين التى تفسر الظواهر البشرية.. فهى ليست بالنسبة له لغة مقدسة. هى لغة كبقية اللغات تعرف التاريخ، وتعرف التطور، وتعرف الألسنة.. ومن ثم فهى ليست خارج الزمان والمكان، وليست مطلقة، ويجوز عليها ما يجوز على بقية اللغات.

هذه هى النقطة المهمة.. أما خصائص فقه اللغة فلست ملما بها، ومن ثم فلا أستطيع أن أبدى رأيًا تفصيليًا فى هذا الكتاب.

•• القضية - إضافة لما قلت - أن اللغة العربية ليست لغة إلهية ولم يقل جمهور اللغويين بشىء من هذا القبيل.. وإن كانت قد وردت بعض الأحاديث النبوية - لا أدرى مدى صحتها - تذكر أنها لغة أهل الجنة.. فإننا يمكن أن نفسر هذا على أنه تحبيذ اللغة العربية لمن يتحدثونها، والإمساك عليها بقوة.. لأن العرب كانوا ينساحون فى كل العالم، وإذا لم يحسوا بامتياز لغتهم وقوميتهم فسوف يذوبون فى أمواج البشر المتلاطمة حولهم.. إن اللغة هنا هى العاصم الأول للعرب من الذوبان.. وقد كانت مشكلة كتاب فقه اللغة العربية للويس عوض أن المؤلف ينفى عن العربية انتماءها للغة السامية الأم، فتنتفى صلتنا نحن أيضًا بأبينا (سام)!!.. وبناء على هذا فليس لنا

الحق فى القدس، ولا الكعبة، وكل مقدساتنا وأرضنا العربية التى نعيش عليها الآن ومنذ عشرة آلاف من السنين.. إنما هى - حسب هذا الزعم من نصـــيب أعـــدائنا الكائنين بيننا فى هذا الزمن كمحتلين!!!

- أقال هذا الكلام فى كتابه؟!

•• هو لم يقله هكذا.. لكنه سيكون نتيجة للمقدمات التى بنى عليها حكمه.. وعلميًا لم يذكر أحد كلام لويس عوض هذا، ولا دليل مقنع عليه. فكل دارسى اللغات السامية: العربية الجنوبية، والعربية، والسريانية، والعبرية، والجعزية يعرفون أن اللغة العربية فرع جوهرى من السامية، ومؤثرة ومتأثرة أيضًا بسائر بناتها.. إنها عضو فى جسد لغوى واحد. لكنه العضو الحى النشط القوى الذى تطور كثيرًا، وأصبح جديرًا بالتقدم والاستمرار حتى الآن وحتى غدٍ.. والدكتور لويس ينفى هذا الانتماء وهذا المنشأ.

- مسألة (الأصل) نفسها تحتاج إلى مناقشة.. فالأمريكان مثلاً ليسوا «أصلاء» فى أرضهم الحالية.. لقد نزحوا من بقاع الأرض المختلفة.. وأصحابها الأصليون هم الهنود الحمر.. فهل يقول أحد بهذا حاليا؟! هل ينازعهم أحد حاليا فى ملكيتهم لأمريكا؟!.

•• لا ينازعهم أحد الآن لأن القوة معهم.. وإذا اشتد الهنود الحمر يوما فسوف يسترجعونها!! والطعن فى أصلنا السامى كعرب مبرر لعودة الصهاينة إلى فلسطين - الأرض العربية واحتلالها.

(أساس عرقى!!)

- الأساس لعروبتنا ليس أساسًا عرقيا ولا ميتافيزيقيا.. إن د حسين شكك فى وجود (إسماعيل).. وأنا ضد هذه الاستنتاجات القبلية.

•• أقول إن هذه هى المشكلة فى الكتاب، وليست مسألة نفى صفة التقديس والألوهية عن اللغة العربية.. لقد كان الخلاف التقليدى بين علماء اللغة قديمًا: أهى توقيف أم تنزيل كلغة؟.

- رأيى أن لويس عوض شديد التوقير والاحترام للديانة الإسلامية. وهو كاتب «عربى» وكتابه جزء من التراث العربى إنه كاتب عربى رفيع المستوى، لكنه لا يرى أننا - كمصريين - جزء من القومية العربية، بل إن لنا (قومية مصرية).. وكل ما حوله من ضجة أثير لأنه مسيحى.

•• هو لم يقل بهذا الرأى بصفته مسيحيًا، بل هو - كما ذكرت - يسير فى توجه عام لجيل قبله ومعه أمثال حسين فوزى وتوفيق الحكيم..

- الناس تحدثت عنه هو بالتحديد.. هناك «كتب» ترد عليه ولا ترد على حسين فوزى ولا توفيق الحكيم.. لماذا لويس عوض؟!. الخلفية هنا أنه مسيحى.. رغم أن المسيحية لا تخاصم العروبة.. بل إن رواد القومية العربية فى النهضة الحديثة كانوا من المسيحيين الشوام: منهم: بطرس البستانى صاحب المحيط، وفرح أنطون، وشبلى شميل..

•• وعائلة الشدياق..

• أحمد فارس الشدياق كان قد أسلم.

•• أقصد العائلة نفسها.

• وهناك الأخطل الصغير..

•• ولماذا الصغير؟!.. فهناك الأخطل «الكبير» نفسه.. ومعه بنو تغلب الذين كانوا مسيحيين.. وهم أصلاء فى عروبتهم ودمائهم.

• وهناك كذلك الشاعر القروى.. ثم ميشيل عفلق، وقسطنطين زريق، ونديم البيطار.

•• من ينظرون للويس بصفته الدينية لا يقصرون هذه النظرة عليه وحده بل يحاكمون كل من يختلفون معهم بمنطقهم هذا..

• لقد صدر مؤخرًا كتاب فى خمسمائة صفحة كتبه حلمى القاعود فى هذا الشأن.

•• ليس كل المفكرين هاجموه لهذا السبب.. كما أن بعض من هاجموه لم يكونوا متحمسين دينيًا، لكنهم يريدون أن يقصروا الكلام فى هويتنا الإسلامية العربية على أنفسهم، حتى لو هاجموها هم.. ولا يريدون لغير مسلم حق الهجوم مثلهم!!.

• .. كما قالوا لى أنا بشأن قضية نصر حامد أبو زيد.. حين تحدثت عنه.. كتب بعضهم أنه لا يجوز لى التدخل، لأنى مسيحى.!!

•• نفس هؤلاء الذين يهاجمون لويس عوض يهاجمون القوميين العرب بدافع دينى: سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين لمجرد أنهم قوميون. وهم يظنون القومية ضد الدين.

• ليست ضد الدين الإسلامى فقط فى رأيهم، بل ضد (كل الدين).. يرون القومية مؤامرة استعمارية ضد الدين!!

•• إنهم يضعون القوميين مع أعداء الإسلام فى كفة واحدة!! ومن هنا أؤكد أنه ليس الدافع الدينى هو الأول والأهم فى الهجوم على كتاب فقه اللغة العربية.. فالقوميون يرون الكتاب أيضًا خطرًا وغير موضوعى.

• أنا أجيب من خلالك.. وهذا الكتاب أقرب إلى كتاب كمال صليبا عن التوراة، الذى يتحدث فيه عن شبه جزيرة العرب، وكيف أنها كانت موئل بنى إسرائيل.. أنا أفهم موقف صليبا هذا.. أما لويس عوض.. فلا.

•• سمعت من شاعر كبير السن - فى حوالى السبعين - أن د. لويس عوض هو الذى أوحى إلى صلاح عبد الصبور وعبد المعطى حجازى بالاقتباس من الكتاب المقدس.. وتبنى تجربتهما.. واحتفى بهما من خلال جريدة الأهرام التى كان يشرف على القسم الثقافى بها. فكان ينشر قصيدة لأحدهما فى أسبوع، ويكتب دراسة عنها فى الأسبوع التالى.. نريد أن نعرف الحقيقة وراء هذا الكلام من خلال علاقتك الوطيدة بالأدباء الثلاثة.

• هذه نكتة غليظة!!. فلنخرج أولاً حجازى من هذه القضية، لأنه لم يتأثر بالتوراة.. وتأثر صلاح عبد الصبور بها كان واسطته فيه (ت.س. إليوت).. وليس هو وحده، إنما الشعراء المحدثون من جيله جميعًا.. كان إليوت هو الأب الشرعى لهذه الاقتباسات. وهذه الاقتباسات التوراتية لا علاقة لها باليهود كيهود، إنما هى علاقة بالشعرية نفسها.. فهم فى بحر من التجديد بالرموز والأساطير وغيرهما، كانت التوراة أحد مصادرهم فى اجتلاب الأساطير والرموز تلك. ولا يعنى هذا أنهم كانوا يرونها كتابًا مقدسًا.

•• هو نص أدبى.

• بعض أسفارها هكذا فعلا. نصوص أدبية يثبت (بريستد) إنها مأخوذة من الأدب المصرى القديم. فهى بضاعتنا ردت إلينا.. وهذه جزء من الحركة الشعرية العربية، ولا يمكن قصرها على صلاح وعلاقته بلويس عوض الذى لم يؤثر على مجمل الحركة الشعرية الحديثة.. إنه أحد المصادر التاريخية فقط.. وإذا قرأنا (بلوتولاند) لا نرى إشارة فى المقدمة ولا النصوص إلى التوراة كأحد عوامل التجديد..

أما اقتناع لويس عوض بأن صلاح وحجازى شاعران مجيدان يستحقان التعريف والتقديم إلى ذائقة ترفض الشعر الجديد، فكان هذا واجبه كناقد كبير، وقد أداه بأمانة وشرف. بالإضافة إلى

«مصريته» وقد عنى بهما أكثر مما عنى بالسياب أو نازك الملائكة وغيرهما لمصريتهما لأنه كان مصريًا مصريًا.. وكان يعتقد أن صلاح عبد الصبور أمير الشعراء العرب كأحمد شوقى. وهذه مبالغة من جانبه، لأن الدور الذى أداه بدر شاكر السياب، و العراقيون والسوريون واللبنانيون دور عظيم جدًا وريادى فى تحرير الشعر بدون الاستعانة بلويس عوض، وبعضهم لم يكن قد قرأ بلوتولاند، وبعضهم الآخر ليس له علاقة مباشرة بلويس.

•• لويس عوض قدم ما تسميه - فى كتاب «مرآة المنفى» - بالنقد الماركسى وإذا تحمس غيره وقدم نقدًا «رأسماليا» ونقدًا «ليبراليا» ونقدًا «رجعيًا».. وهكذا.. فكيف نتخيل صورة الأدب حينها؟! ألا ترى جهود لويس عوض بعد أعوام قليلة من وفاته قد ذهبت أدراج الرياح، ونسيها الناس، ونُسِىَ هو نفسه؟!!

• صعب هذا النسيان!! والنقد لدى لويس فى بداياته به تأثر شديد بالماركسية.. وموقفى من هذا النقد هو نفس موقفى من نقد سلامة موسى: الربط بين الأدب والطبقات الاجتماعية بطريقة ميكانيكية لا أوافق عليه.. لكنى أشير هنا إلى مسألة مهمة: أن لويس عوض تناقض بين تنظيره وتطبيقه. كان فى التنظير ماركسيا، وفى التطبيق هو ناقد رومانسى فما كتبه عن الشعراء، وعن نجيب محفوظ لم أجد به ربطًا بين الفن والطبقات الاجتماعية؛ وإنما هيام رومانسى، وانطباعات رومانسية أكثر من أن يكون ناقدًا ماركسيا.. وهو على

مستوى التنظير كان منظرًا شبه ماركسى لأن الماركسية التى عاصرها هى ماركسية ستالين: الماركسية الجامدة جدًا.. أى ليست ماركسية جارودى مثلا الذى كتب (واقعية بلا ضفاف) ولا ماركسية أرنست فيشر النمساوى الذى جعل الماركسية الأدبية أكثر رقة وحنانًا على الفن، وأكثر احترامًا للجمال.

كان لويس عوض يعيش فى ظل ماركسيين إنجليز مثل كريستوفر كودويل الذى أثر فيه جدًا. وكان كريستوفر جامدًا. وهذه مرحلة الهيمنة الستالينية على العالم، ولويس ابن تلك المرحلة. ومع ذلك ففى نقده التطبيقى لم يكن ماركسيًا على الإطلاق.

أما أن أحكامه وتقييماته ونقده قد ذهبت أدراج الرياح، فهذا كلام يحتاج إلى تدقيق.. لأنه لابد من معرفة التيارات النقدية السائدة فى الجامعة مثلاً.. فإذا كانوا بنيويين سيبتعدون عن لويس عوض، وإذا كانت هناك مرحلة شبه رومانسية فسيبعث لويس عوض.. وهكذا.

فالعقاد نفسه ناقد رومانسى عظيم؛ تلقى الرومانسية النقدية عن هازلت، وربما لا تجد العقاد هذا الزمان مرجعًا فى كتاب معاصر، لكن ربما بعد زمن - قد يطول أو يقصر - يمكن أن يعود مرة أخرى كطه حسين الذى وجد بعد سبعين عامًا من يعيد نشر كتابه عن الشعر الجاهلى. وهو كتابٌ منهجٌ، ليس كلامًا عابرًا عن الشعر الجاهلى. وكثيرون لم يكونوا قد قرأوه. ولم يكن الكتاب مصدرًا معرفيًا أو نقديًا لزمن طويل جدًا.. ومع ذلك تجد ناقدًا كسيد

البحراوى فى كتابه (البحث عن منهج للنقد العربى الحديث) يتناول فى أول فصوله نقد طه حسين.. فهو لم يمت رغم بُعد المسافة. ولذا فمن المهم أن نتأنى فى إصدار الأحكام، أو تلقف التصورات عن الراحلين من نقادنا.

•• كان يرى لويس عوض فى سنينه الأخيرة أنه ليس هناك نقد.. وليس هنالك من يستحق أن يكتب عنه بعد الحكيم ونجيب محفوظ.. ألا يعنى هذا طعنًا فى وجودك وكل جيلك التالى للويس عوض؟! ألم يكن يعترف بكم رغم قربكم منه؟!

• لويس عوض كان عظيم الاحتفال بالجديد والتجديد. لكنه لم يكن عظيم الاحتفال بالمجددين. فهو ضعيف الإيمان بالأجيال التالية من بعده: سواء فى الإبداع أو النقد. لأنه يتمثل ظروفه وظروف جيله ويجعل منها قيمة معيارية وقياسًا.. فيعرف ماذا درس فلان أو قرأ أو قدم أو فعل، أى أتتطابق مع حياته وجيله أم لا.

وحينما لا يجد أحدهم قد ذهب إلى أوربا، أو درس فى جامعاتها مثلاً.. فليس إذن هناك مثل مندور ولويس عوض وطه حسين والحكيم: الذين سافروا وبقوا سنين طويلة، وشقوا طريقهم إلى المعرفة بجسارة.

حين لا يجد ذلك يرى أنه لا فائدة!! وهذه نظرة تشاؤمية تصيب كبار السن: فنفس طه حسين كان متشائمًا جدًا من الحركة الأدبية

التالية له، وقد أجريت معه حوارًا طويلاً - صدر فى كتاب - يقول فيه: أودعكم بكثير من اليأس، وهو ممرور جدًا، وكان يتهمنا بأننا (نخطف الثقافة خطفًا) بينما الحقيقة أن لدينا نحن حصيلة معرفية أكثر من الحصيلة المعرفية لديهم كأجيال سابقة. لأننا عاصرنا أنظمة معرفية لم تخطر لهم على بال.. وبالتالى فأدوات البحث لم تكن فى أيديهم. هذه سنة الحياة، ويمكن إذا «شختُ» أنا أن أقول نفس الكلام عن القادمين بعدى.!!

• رذاذ الإبـــــداع

رذاذ الإبداع!!

كم يطرب القارئ وعيناه تلتهمان كتابات طه حسين في (حديث الأربعاء) وغير حديث الأربعاء.. يقفز القلب من عبارة لأخرى، ومن لفظة للفظة في العبارة ذاتها.. كأنه الشدو كله، أو كان الشدو هي.. فيها الطرب والنغم، مع يقظة في العقل، ولدغة للوجدان.

هذا الذى نتوقف عنده، ونعجب به من كتابات طه حسين ليس هو بالشعر، ولا القصة، ولا المسرح.. إنه (النقد) لا أكثر ولا أقل.

وإذا كان يملك النقدُ هذا السلطان على الفؤاد، أوَ ليس هو بالإبداع، لب الإبداع؟!. وإذا كنا لا ننشد فى الإبداع ووقعه على النفوس أكثر مما نرى ونسمع ونحس بمثل هذا النقد، أفلا يكون النقد عينًا من عيون الإبداع، وجنسًا من أجناسه، ولونًا من ألوانه؟

إننا لا نناقش هنا هذه القضية التى أراها - من ناحيتى - مسلَّمةً فى معظم حالاتها.. إنما نتحدث عن الإبداع الذى لا يختلف اثنان فى انتمائه وهويته: الشعر، القصة القصيرة، الرواية، المقالة، المسرحية وهذه الإبداعات تتدفق بالفطرة: لا تخلقها الدراسة والتحصيل، إنما تنميها وتُجرى الخضرة فى عروقها. ومادامت قريبة من الفطرة هكذا فهى أحرى بأن يخطو الأديب خطوته الأولى فى طريقها.. ما علاقة غالى شكرى إذن بها، فى سائر أجناسها، منذ البدايات الأولى، ثم الشباب، وما بعدهما من حياته العميقة الثرية بالفكر؟؟

سألته فأجاب، ومازالت لمسات المرض مرتسمة على وجهه تخفت أحيانًا لتحل محلها قوة عزيمة غير عادية، وتبدو حينًا فأخشى على د.غالى من غلوائها وعنفها.. وأخشى عليه هو من نفسه.

لقد أصر بمجرد وصوله من باريس إلى القاهرة - لمواصلة رحلة علاجه الطبيعى من شللٍ ألمَّ بيده وساقه اليسرى - أصر على أن يستأنف حواره معى.. وخشيت أن أعرب له عن إشفاقى عليه من كبوة لا تحتملها الجمال فاحتملها راضيًا مرضيًا.. وذهبت إليه جالسًا بجانب سرير مرضه، ومازلت مترددًا فى إثارة ذهنه وتحميله ما قد ينوء به.. فإذا بالدكتور غالى يفتح هو الحوار، ويستطرد، ويفيض.. وحين تعترضه هزةُ ألمٍ أو صَدَّة مللٍ يصمت برهة ليواصل زمنًا ليس بالقليل.

إنها الإرادة، والحماس، والأمل: رجل فى الستين من عمره يملك أملاً لا نملكه نحن بأعوامنا الثلاثين أو الأربعين.. يتقاطر منه التفاؤل

فى زمن طالت به كل عناصر اليأس، وتمددت أيام التعاسة ولياليها وشهورها وسنونها.

ما يأتى من حوار فى الفصول القادمة، هو محصلة هذا الصراع الذى دار بعمق غالى شكرى؛ ما بين المرض الذى يحاصره، والتفاؤل الذى يضىء أعماقه.. قلت له:

•• يعتقد كثيرون من المبدعين أن على من يتولى تقييم عمل إبداعى: شعرًا أو قصة أو مسرحًا أن يكون قد خبر الإبداع بنفسه، وعاناه، وعاش خبايا ولادته.. ألم تساعدك بدايتك الإبداعية على تثبيت أقدامك النقدية؟؟

فرد :

• لا أدرى.. فقد بدأت الكتابة - وليس الإبداع - للشعر والقصة منذ فترة طويلة جدًا من الزمن حتى عام ١٩٥٦.. ولكنى رأيت النقد الأدبى إبداعًا، كالقصة والشعر تمامًا.. وعشقته، خاصة النقد الإنجليزى من هنا جاء الإبداع تحت رعايته لا يدينه، بل تحت رعايته.. فهو متضمن فى النقد، وليس نباتًا متسلقًا على النقد.

وقد أحببت النقد جدًا: ملك علىَّ كل حياتى بحيث نذرت نفسى له نهائيًا سنة ١٩٥٦.. فكتبته لأول مرة ويكاد عمرى يكون غير متجاوز العشرين عامًا، وكانت رواية (زقاق المدق) لنجيب محفوظ أول تناولاتى النقدية.. وأعطانيها محمود الفيشاوى أستاذى بالمدرسة. ولم ينشر ذاك المقال، ولكنى أتذكر أنى كنت منحازًا للرواية.

وأول مقال نقدى كتبته ونشر كان عن شعر أحمد عبد المعطى حجازى، وكتبت أيضًا مقالاً فى قصيدة لمحمد عفيفى مطر كان عنوانها: (مع ولدى فى مهده) ولم ينشر.. أما مقالى فى عبد المعطى حجازى فقد نشر بمجلة (الرسالة الجديدة) وسكرتيرها حينذاك صبرى موسى، وكانت قصيدة حجازى أول عمل شعرى له ينشر بمجلة معترف بها، وعنوانها: (بكاء للأبد) وهى رومانسية.. وأنا أيضًا كنت رومانسيًا فى نقدى فكتبت عن القصيدة فى العدد التالى مباشرة، وقد فوجئ الشاعر بذلك.. وأصبحنا مرتبطين معًا منذ ذلك الحين.

لدىَّ من الإبداع حتى هذه اللحظة أعمال منشورة، وأخرى غير منشورة.. فمن المنشور فى مجلة (قصتى) لى قصة بعنوان (إلى اللقاء)، وفى مجلة (الحرية) لغسان كنفانى - الذى سطا على مكتبى وأخذ منه كل ما أرفض نشره!! - لى قصة (ضربة شمس) وهى هجوم على الكهنوت.. وغير هذا هناك حوالى أربع قصص قصيرة لا أتذكرها.

•• إخفاؤك لهذه الأعمال أيعنى عدم رضاك - نقديًا - عنها؟!!

• نعم.. يعنى عدم رضاى عنها!!

•• أهى دون المستوى؟!

• فعلا.. دون المستوى!! وقد انتهى عهدى بها تمامًا. لكنى بين الحين والآخر أجد فى نفسى منها بعض الرواسب بحيث لم

أتخلص منها أبدًا.. فطريقة القص، والأسلوب الشعرى، تجدهما فى نقدى الأدبى.

وفى الثمانينيات كنت أريد تصفية حسابى مع الناصرية، فكتبت نصًا يدعى (مواويل الليلة الكبيرة).. ولا أدرى إطلاقًا ما إذا كان رواية أم لا.. لكن الناشر أصر أن يكتب كلمة رواية، ونقل عنها الناشر الآخر فى الطبعة الثانية، وصدق الناس أن هذه رواية.. ولا أعرف هويتها.. إلى أن كتب عنها حسين حمودة فى أحد الأعداد المتأخرة من مجلة (القاهرة) مقالاً فهمت منه أنه يعتبرها رواية.

الإبداع يمثل شيئًا عظيمًا بالنسبة لى، وكذلك النقد.. لكن النقد بالنسبة لى حرفة.. أنا ناقد.

•• أما مقولة أن الناقد مبدع فاشل فأنت لا تصدق عليها!!

• لا.. إنه كلام فارغ!! النقد ليس أقل من الإبداع.. هو إبداع.

•• قلت فى ثنايا الكلام إنك كنت منحازًا للرواية.. أيعنى هذا أنك تأخذ بقول من يدّعى أن الرواية ديوان العرب حديثًا؟!

• لا.. هذا كلام يطلق على عواهنه. والحقيقة أن العرب شعراء حتى الآن، ويعنيهم الشعر فى المقام الأول. وفى مصر ليس هناك شاعر عظيم الآن. ولا ينفى هذا أن المصريين يحبون الشعر كغيرهم من الشعوب العربية، وأنهم يبدعونه حين تظهر المواهب إبداعًا عظيمًا. وليست صدفة أن أحمد شوقى كان مصريًا، ومحمود سامى

البارودى، ومحمود حسن إسماعيل، وعلى محمود طه، وصلاح عبد الصبور..

فإذا كان الشعر الآن لا يجد أرضًا، فينبغى أن نبحث عن الأسباب. فلربما يكون هناك شعر، ونحن لا نلحظه.. وربما يكون هناك شعراء صغار السن. وقد يكون الشعر موجودًا فى بعض الفنون غير المكتوبة كالفن التشكيلى والسينما، والرقص.. نحن لا نلحظه، لكنه شعر، أو شعرية.

أنا لست سيئ الظن بالشعر العربى. وأعتقد أن الحركة الأدبية العربية المعاصرة حركة عالمية.. لا يجوز أن نبحث عن العالمية لأننا مغروسون فيها، جزء منها.

•• لكنك ذكرت منذ برهة أنه لا يوجد شاعر عظيم فى مصر الآن..

• حتى لا نكون ذاتيين أقول: ليس هناك شعر.. لا أقول: ليس هناك شاعر..

•• ربما يجىء هذا الحكم من خلال متابعتك لوسائل الإعلام فقط، وهى غير صادقة فى عرض الإبداع والفكر.. فهل أعددنا استقصاء كاملاً ودقيقًا لكل ما يكتب من أشعار بكل أنحاء مصر؟!

• لا.. طبعا.

•• قد يكون حكمك هذا عائدًا إلى ما «ينشر» لا إلى ما «يكتب»..

• طبعًا..

•• وبالتالى يمكن أن يكون هناك شعر عظيم وشعراء عظماء!!

• يجوز جدًا.. أنا أحكم على ما يصلنى فقط.

•• تكتب (بالأهرام) بعض المقالات فى قضايا عامة.. لكنها تصاغ بحس أدبى.. أتراها جنسًا إبداعيًا؟! حين تقيِّم بنفسك ما تكتبه من مقالات، أتعد مقالاتك من حيث البناء الفنى تسير فى موكب مدرسة الراحل زكى نجيب محمود؟!

• أنت تذكرت زكى نجيب محمود الآن لأن المقالة الأدبية فن مستقل. وأعتقد أن زكى نجيب أحد عباقرة هذا الفن. ويقينى أننى أكتب حينما تسيطر علىَّ قضية أو فكرة معينة، وتلح على وجدانى إلحاحًا متصلاً، وتجدنى طوال الأسبوع أكتب عنها.

أما حكاية الأسلوب الأدبى، فأظن بواكير إنتاجى الأدبى قد تركت أثرها فىَّ حين أكتب أى شىء بما فى ذلك مقالات الأهرام.

•• أى أنك تعدها جنسًا أدبيًا كالشعر والقصة والرواية..

• هناك فن المقالة الأدبية، كان موجودًا، وهو الآن انقرض تقريبًا. ويعد زكى نجيب وأمثاله من أعمدة هذا الفن. أرجو أن أكون واحدًا من هؤلاء المتشيعين لفن المقالة.

•• ألا تعتقد فى انتمائك لنفس مدرسة زكى نجيب فى المقالة؟

• لا والله!! لا أعرف.. أتمنى، لكن لا أعرف، وأنا متأكد من أن بواكير إنتاجى الأدبى نضحت على كتاباتى الأدبية فيما بعد ذلك بالصحافة.

•• الرسالة الأدبية، والآبدة، والخاطرة نماذج من الإبداع العربى الذى صب فيه أجدادنا همومهم ومشاعرهم التى لم تكن تستوعبها القصيدة والقصة الوعظية والمقامة والحكاية.. ألم تجد فى نفسك رغبة فى الخروج عن نمط المقالة والدراسة لتسجل شيئًا من هذه الإبداعات النادرة فى زمننا الحديث على نمط ما فعله مصطفى صادق الرافعى فى رسائله مثلاً؟؟

• هناك كتابات فى بعض أعمالى لا تصنف نقدًا أدبيًا ولا فكرًا اجتماعيًا.. ومن الممكن القول إنها خواطر.. فعندما تقرأ (إنهم يرقصون ليلة رأس السنة) أو كتاب (خطاب إلى القارئ العادى) تجد بعض الخواطر، فليس الكتاب كله نقدًا، وفيه أيضًا بعض التأملات فى الحياة والموت والناس والأشياء.

لى كتابات تنتمى فعلاً إلى جنس الخواطر الأدبية، ولدىَّ أيضًا رسائل أدبية. وهى ليست رسائل مقصودة، بل إننى أتخيل فيها صديقًا وتلك الأزمة التى وقع فيها، وأعالجها.

•• أى صُنعتْ خصيصًا كرسالة.

• نعم.. وضعتها خصيصًا بهذا المعنى، ثم إن النقد لدىَّ ليس مجرد نقد أدبى، إنما هو نقد الحياة والمجتمع الذى نعيش فيه

وأعتقد أننى أملك عقلا نقديًا. وبالتالى فالنقد الأدبى تحصيل حاصل.. أى أنه كان طبيعيًا بالنسبة لى أن أصبح ناقدًا أدبيًا.

•• ربما يحس الشاعر أن كتابة قصيدة أصعب عليه من حمل جبل.. ألم يكن انصرافك عن كتابة الشعر والقصة فى البداية نوعًا من الاستسهال، بكتابة المقالة والدراسة والبحث؟!!

• ربما.. لست أدرى. أنا ذوقيا وجدتنى بعيدًا عن كتابة القصيدة والقصة والتمثيلية أيضًا.

•• أكتبت تمثيليات للإذاعة؟!

• نعم.. عدة مرات. وفى سن متقدمة كانت بعض الشخصيات تتحول بين يدىَّ إلى حوار وإلى تمثيلية إذاعية، وتذاع فعلاً. مثل (على مبارك)، (غاندى)، (جوته). وقد أخرج هذه الأعمال الراحل إبراهيم الصحن، فموهبة الحوار متوافرة لدىَّ.

•• لك مساهمات - ربما قديمة - فى مجال الترجمة.. ما حدود الإبداع فى هذا المجال، وحدود المترجم نفسه؟! لماذا انصرفت عنها؟!

• الترجمة نوع معين من الإبداع: بأن تفهم السياق الحضارى للغة التى تنقل عنها، والتى تنقل إليها. فهذا نوع من الإبداع، وأعد فؤاد كامل عبد العزيز - رحمه الله - أحد رموز الإبداع فى الترجمة.. وليس الإبداع أن (تغيرٍ) بل أن تفهم جيدًا.. وأعتبر إدوار الخراط أيضًا أحد رموز الإبداع فى الترجمة.

وهناك أجيال سابقة علينا كان منها مترجمون عظماء، أمثال طه حسين وعبد القادر القط ومحمد مندور ولويس عوض. وليست الترجمة هى الصفة الأساسية فى كل منهم.

•• أتعتقد أن المبدع العظيم مترجم عظيم؟

• أرى أن مبدع الترجمة يخلص لها؛ أما المبدع عمومًا: شاعرًا أو روائيًا، فموهبته الأساسية هى الشعر أو الرواية.

•• لكن من قدموا أعمالاً عظيمة مترجمة كانوا جميعًا مبدعين.. وهذا معناه أن المبدع أكثر جودة فى الترجمة من غيره..

• لأن المبدع الأدبى (يفهم) جيدًا سواء اللغة أو غيرها.. كطه حسين والمازنى مثلا.. إنهم يترجمون كما يكتبون؛ يتقمصون شخصية المترجم.

•• إذا شئنا أن نرتب الأجناس الأدبية من حيث القيمة الإنسانية واتساع الموهبة وعمقها، وغيرهما من المفاهيم: فأى الأجناس تتقدم فى نظرك: الشعر، القصة، الرواية، المسرحية؟!

• أنا منحاز للرواية والشعر. لكنه انحياز شخصى يدل علىَّ أنا شخصيا.

•• أيعود هذا لنمط التربية العلمية منذ البدء؟؟

• ربما.. قد تكون المدرسة الإنجليزية، أو الشيخ حافظ، أو محمود الفيشاوى..

•••

• ناقد.. والحمد لله!!

ناقد.. والحمد لله!!

لا شك فى أن العمود الفقرى فى الإنجاز الفكرى لغالى شكرى يتجسد حيًا نابضًا متوهجًا فى (النقد الأدبى).. الذى لم يتعلمه ويتكسبه، بل جُبِلَ عليه قبل ذاك الاكتساب.

من يملك إيجابيته، وتمرده، وحرصه على الحياة وهو بين أنياب الخطر لا يمكن أن يكون إلا ناقدًا.. إنه ليس هاربًا من الإبداع، بل هو منغمس فيه، وسابح، وقاعد، ومقيم!!. فما النقد العظيم إلا إبداعًا: النقد الذى يأخذ على القارئ كل مأخذ حتى يبدو له كأنْ لا كلمة إلا كلمة الناقد، ولا رأى إلا رأيه، ولا حجة تعلو حجته.

فى النقد تتألق العبارة وتنصُع، وتزدهر البلاغة وترقى، وتنمو الحجةُ وتضيء، وتتسع دائرة الكشف: فإذا العمل الخاضع للنقد كأنه

عـقـد من لـؤلـؤ، أو حـبـات مـن صـدف وحـجـارة.. لكنه فى الحـالين منكشف لنا، غير خادع ولا مناور.

وليس من قـبـيل النقـد، ولا يدخل إليـه من باب ولا نافـذة هذا الذى يحفل بالدوائر والمثلثات والمنحرفات.. والمنحرفين من كُتَّابه!!. أما الدكتور غالى شكرى فهو من هذا الادعاء برىء، وهو إلى النقد الحق ينتمى أخلص الانتماء.. ولكَ بعد هذا أن تختلف معه، أو تتفق.!!

•• أطلقتُ على هذا الفصل من (الكتاب) عنوان: (ناقد.. والحمد لله) أتتحفظ على الجزء الثانى من العنوان.. أى تعبير «الحمد لله»؟!!

• لا أتحفظ عليه مطلقًا.. لأنه جزء من التقاليد والقيم الشعبية وأنا أحترم الشعب المصرى جدًا، بكل ما فيه من بساطة! وبكل ما له من مزايا. وفخور بمجموعة التقاليد التى تحكم تفكيره وسلوكه وعمله.

•• «ناقد» و «ناقم» لفظتان بينهما جناس، وبينهما أيضًا اختلاف كبير.. لكن التعبير الشائع فى أوساط المبدعين هو «ناقم» وليس «ناقدًا»!! أهنالك إجحاف ما وقع على النقاد كمبدعين فاشلين كما يدعى الكثيرون؟!!

• التجربة الشخصية تحكم رأى الكاتب.. لكن ليست كل التجارب الشخصية صحيحة. فهناك دلائل كثيرة تؤكد أن الناقد لا ينقم على أحد، وأنه موضوعى إلى حد كبير. وهذا ما أؤمن به فعلاً.. والناقد ليس وزير إعلام، ولا هو وكيل دعاية. هو لا يتلقف ما تلفظه المطابع

فور صدوره، وإنما هو رجل صاحب مشروع. كما ينبغي أن يكون.. وبالتالى فقد يحتاج إلى ما تلفظه المطابع، وقد لا يحتاج.. قد يحتاج إلى بيت قديم من الشعر.. قد يحتاج إلى مخطوط لم يصدر بعد.

إن الناقد يبنى عمله كما يبنى الشاعر أو القاص، ويحتاج إلى الوقت والهدوء والابتعاد عن المجاملة، وأيضًا إلى الابتعاد عن عكسها: المجاملة المضادة، أى الحقد أو الفشل.. لا علاقة له بهذه الأمور.

•• تقول إن الناقد صاحب مشروع.. ماذا لو لخصتَ لنا مشروعك النقدى؟؟

• أبحث فى العمل الأدبى والفنى عن حلول لمشكلات وطن، وهى مشكلات التخلف. وبالتالى فأنا سابق على العمل الإبداعى.. أبحث داخله عن مقومات النهضة والتقدم والعقلانية والاستنارة.

وأعتقد أن إنتاج السنوات المائة الأخيرة - على المستوى العربى. يستحق أن يعاد فيه النظر، بحيث يستطيع الناقد أن يستخلص القانون الرئيسى لمسيرة الحركة الأدبية، والقوانين الفرعية الحاكمة للأعمال الأدبية النوعية: كالشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرح.

فعندما نحصل على القانون الأساسى لمسيرة الحركة الأدبية فى بلادنا، والقوانين الفرعية التى تحكم الأعمال النوعية لأدبنا.. حينئذٍ لا تبقى لنا حجة ولا عذر فى اقتباس هذا المصطلح أو ذاك من الأدب

الأجنبى.. وإنما نجد المصطلح المحلى متوافرًا أمامنا، نستطيع استخدامه دون تعسف.

●● الا ترى فيما قدمه طه حسين والعقاد ومندور وأنور المعداوى ولويس عوض شيئًا من تقييم هذا الإنتاج خلال قرن، وتحديد المعالم الرئيسية له؟!

● هناك بعض الملامح.. لكن هؤلاء جميعًا أخطأوا فى استعارة المصطلح النقدى الغربى، بدون إعادة نظر أتحدث عنها الآن.

●● ظاهرة حديثة لا يتجاوز عمرها خمسين عامًا هى (التخصص) فى الإبداع الأدبى.. هنالك شاعر فقط، وقاص فقط، ومسرحى فقط وناقد فقط.. بل ربما اشتغل بعضهم بزاوية واحدة من زوايا هذه الأجناس.. وحتى زمن ليس بعيدًا - بوفاة طه حسين - كان الأديب قاصًا وروائيًا ومسرحيًا وناقدًا ومحققًا للتراث ومترجمًا، وربما شاعرًا.. كان موسوعيًا، مثل الجاحظ وابن قتيبة وابن الأثير وابن المقفع حتى عميد الأدب العربى.. الا ترى ظاهرة التخصص هذه - مع قلة المجيدين - تعنى شيئًا من ضيق الأفق وضحالة الثقافة أم أنها تأثر بالعلوم الطبيعية والتجريدية؟!!

● ليس ضيق أفق، ولا ضحالة فى الثقافة.. لكنها الموهبة. فإذا كان المرء موهوبًا فى عدة أجناس أدبية، فتعدد المواهب ليس عيبًا، واقتصار المواهب على فن بعينه ليس عيبًا أيضًا. المهم أن يكون الفن فنًا. أن يكون الإبداع إبداعًا.

•• قديمًا كانت الغالبية الغالبة من الأدباء تمارس سائر أجناس الأدب.. وكانوا يجيدون..

• من حقهم ذلك؛ لكن هذا ليس قانونًا، وليس فرضًا على الآخرين ولا يجوز الفرض من أى نوع؛ فهو قهر، ولا نريد القهر بأى شكل.

•• المعهود لدينا ثلاثة مستويات من النقد الأدبى: البحث الأكاديمى، والدراسة النقدية، والمقالة الأدبية.. هل ثمة ملامح محددة لكل منها تختلف عن الآخر؟؟

• لا أدرى ما تقصد بهذه المصطلحات بالتحديد.. فمن الممكن أن يكون البحث الأكاديمى بقلم طه حسين مقالاً أدبيًا عظيمًا أو دراسة علمية.. ومن الممكن ألا يكون.

لكن حين تتوافر فيه صفة الحكم والتقويم فهو نقد أدبى.. سواء أكان أكاديميًا أم صحفيًا سريعًا.. المهم أن يهدف إلى التقويم.

•• ترى أنه لا توجد فروق بين هذه المسميات الثلاث.. رغم أن البحث الأكاديمى هو رسالة الدكتوراه أو الماجستير التى ينشد منها الباحث الحصول على شهادة جامعية، ويخاطب بها ثلاثة أفراد هم الذين سيناقشونه غالبا وفئة قليلة جدًا من الناس.

الدراسة النقدية يمكن أن تكون للمثقفين جميعًا، وتنشر فى مجلات راسخة. المقالة الأدبية تنشر فى أية صحيفة، وتخاطب جميع مستويات القارئين.. هكذا أتصور.

• إذا كان البحث الأكاديمى مقصورًا على مخاطبة اثنين، أو ثلاثة أو خمسين فليذهب إلى الجحيم.. أنا لا أريده. أما إذا كانت الدراسة العلمية رصينة، تتوافر فيها كافة شروط النقد الأدبى الأساسية، بحيث تخاطب المئات عبر مجلة أو منبر راسخ، فأهلاً بها. هى نقد لا غش فيه.

أما المقالة الأدبية فهى تخاطب الرأى العام وتشكله. والصحافة تؤدى هذا الواجب. وما على الكاتب - إذا كان موهوبًا فى هذا المجال - إلا أن يكتب وينشر. فنحن نرحب به فى صفوفنا، أيًا كانت صفتنا.

•• الكتب الخالدة فى تاريخ الأدب العربى كالأغانى والكامل والشعر والشعراء والبيان والتبيين.. لم تكتب لتنشر كمقالات فى صحيفة، بل وضعتْ لتكون كتبًا.. حتى (حديث الأربعاء) أُلِّف بنية الكتاب، ثم لم يكن هناك ضير من نشره مسلسلاً فى الصحف قبل إصداره.. أليس من الطبيعى والمستحب أن ما يُجمع فى كتاب يؤلف خصيصًا لهذا الغرض وأن ما ينشر فى صحيفة ليس يحمل القيمة العالية للكتاب المصنَّف للخلود؟

• ليست هناك ضرورة مطلقة لهذا النوع أو ذاك.. فقد تحمل بعض المقالات فى الصحف قيمًا باقية على الزمان، وقد يحمل الكتاب هذه القيم، وقد لا يحمل أيهما شيئًا من القيمة.. المهم هو القيمة نفسها فإذا كانت متوافرة فلا يهمنا الشكل أو الوسيلة.. وإذا غابت فهذا لا عذر فيه.

•• معظم مؤلفاتك أظنها ولدت فى شكل مقالات أولاً..

• لا.. حوالى النصف فقط.

•• لو قيَّمتَها.. أى النصفين تقدمه على الآخر؟!

• أنا أقدم الكتاب ذا الموضوع الواحد.. فمثلا (الجنس فى القصة العربية) لم يكن فصولاً فى صحف.. و (المنتمى) لم يكن فصولاً بالصحف كذلك و (سلامة موسى) وغيرها..

وهناك طريقة أخرى: أنه حينما يتم الكتاب أنشر بعض فصوله، لكنه كتب بهدف أنه كتاب. وهناك بعض المقالات الصحفية تستحق أن تُضم بين دفتى كتاب. وهناك أشياء متعلقة بالزمن، مجرد مضىّ الوقت ينهى أهميتها.. والأفضل لدىَّ عامةً هو الكتاب ذو الموضوع الواحد.

•• وضعتَ عدة كتب عن شخصيات بعينها هى: نجيب محفوظ (كتابان) يوسف إدريس، توفيق الحكيم (كتابان)، غادة السمان، محمد مندور، طه حسين، سلامة موسى.. ما الذى استفزك فى كلٍّ منهم لتكتب عنه؟! ما الخلفيات الكاملة لكل من هذه الكتب؟؟

• هذه الأهداف والخلفيات تراها موجودة غالبًا فى العناوين: فقضية الانتماء كانت تعنينى جدًا فى أدب نجيب محفوظ.. قضية الاعتزال - على عكس الانتماء - كانت تهمنى جدًا فى توفيق الحكيم.. غادة السمان كانت تهمنى من عدة زوايا: أولاً: هى امرأة، ثانيًا: هى ليست مصرية. ثالثا: هى شابة لم يكتمل عطاؤها الأدبى بعد..

فهذه أسباب تحفز الناقد للمعرفة والرؤية النقدية. ووضع دراسة مستقلة ذات سيادة عن هذه السيدة.

•• التقليد فى هذا الشأن أن الكتاب يوضع لمن استقر إبداعيًا.. وإذا كان الدافع أنها غير مصرية فلدينا مثلا (نازك الملائكة) بقامتها الإبداعية العالية، وكذلك سلمى الخضراء الجيوسى.

• أنا اخترت غادة السمان.. وهى أكثر استقرارًا منهما بكثير بكثير.. الروايات التى أصدرتها أعمال باقية على الزمان. وغادة تكتب بلغة عربية وأسلوب عربى ليس له مثيل، هى نسخة واحدة لا نظير لها. فمن كتب عن الأديبات الأخريات؟! لقد اخترت واحدة تجتمع فيها الشروط التى أطلبها. وأنا يهمنى جدا عدم الاستقرار. فلا يجوز أن نأخذ بالدراسة والنقد من هو مستقر كنجيب محفوظ اليوم. لكن المهم نجيب محفوظ منذ خمسين عامًا.

فبعد أن يصبح الأديب مؤسسة لا قيمة له على المستوى النقدى إن الناقد يستمد أهميته من هذه المؤسسة وليس العكس.. فلم يعد هو فى حاجة إلى النقاد ولا إلى نقدهم. أما الكتابة عنه لأول مرة فشىء صعب المنال. وبعد عدة سنوات ستغدو غادة السمان مؤسسة يكتب عنها من يشاء، أما أنا فلن أكتب حينها عنها.

•• أهناك خط فكرى أو فنى اكتشفتَه يجمع بين كل هذه الشخصيات التى أفردت لها كتبًا؟!

• أبدًا.. ليس هناك خط فكرى يجمع بينها.. لكن هناك خطًا فكريا يجمع بين أعمال كل واحد منهم على حدة.

•• تستخدم بعض المصطلحات الأجنبية فى مؤلفاتك وبعض عناوين كتبك، مثل (دفاع عن النقد.. خلفية سيسيولوجية).. ألا يتناقض هذا مع موقفك القومى العربى، خاصة أنه يمكن إيجاد بدائل عربية لهذه المصطلحات؟!

• كان العنوان الأول لهذا الكتاب الذى ذكرته هو: (نحو خلفية سيسيولوجية للنقد العربى الحديث) فتغير إلى العنوان الذى ذكرته. وكلمة (سيسيولوجيا) ليس معناها الدقيق هو (الاجتماع).. أحيانا لا نجد نظيرًا للمصطلح الغربى فى اللغة العربية، فنجمع بين الاثنين حتى تحل هذه الإشكالية نفسها.

•• نعلم أنك تنشد الجمهور دائمًا.. هل يتعاطف الجمهور مع مثل هذه المصطلحات الغريبة؟!

• لا.. الجمهور يحب المصطلح العربى.. وإن كانت قد شاعت ألفاظ مثل: (راديو) و (سينما) و (تليفزيون) بين العامة.. فلمَ لا ترد فى نص نقدى محترم؟!

•• ربما لخصتَ فى بعض مقالاتك منهجك النقدى فى محاولة استكشاف العمل الإبداعى، وفكّه، وإعادة تركيبه.. وإذا كان الأمر كذلك فهل يخرج هذا عن منظور الشكل والمضمون فى نقدنا القديم، وعن كون النقد يمر بثلاثة أطوار: هى: التفسير، والتحليل، ثم كشف السلبيات والوقوف على الإيجابيات؟!

• لا أعرف هذه المسائل.. أعرف شيئًا مهمًا جدًا؛ وهو أننى أتعامل مع كيان لغوى.. واللغة نفسها ظاهرة سمعية.. فهناك علاقة بين الجمال والسسيولوجيا.

وما يهمنى أن أقرأ العمل الأدبى قراءة أولى.. فأحبه أو أكرهه.. إذا أحببته فهو يخضع لعدة مفاهيم: مجموعة البِنَى التى تشكله داخليا.. مع اهتمامى الشديد بالمجتمع. وأنا أبحث عن المجتمع داخل العمل الأدبى لا خارجه.. أقلب داخله مرتين: مرة من خلال اللغة، ومرة من خلال المحتوى الاجتماعى للشكل.

أنظر للعمل الأدبى من عدة مستويات: مستوى اللغة ومستوى الدلالة، والمستوى النفسى والعقلى.. وغيرها.. بعد ذلك أبحث عن علاقة العمل بالأعمال الأدبية المشابهة له لدى الأديب نفسه، والبيئة الأدبية المحلية والعالمية.. هناك نقد مقارن لابد منه.. وحتى أنتهى من هذه العمليات أكون قد فتَّتُ العمل الأدبى إلى جزئيات صغيرة جدًا، وأعيد ترتيب هذه العناصر، فتظهر قيمة العمل الأدبى.

وفى كل هذه الحالات تبرز رؤيتى أنا؛ لأن الناقد مفكر.. وهنا تبرز قيمة الناقد كمفكر لا يقاد للآخرين، وليس تابعًا، بل هو صاحب رؤية، فيعيد الترتيب وفق رؤاه.

هذا هو منهجى فى النقد، قد يعجب الناس وقد لا يعجبهم.. لكن ذاتية الناقد بالغة الأهمية، كذاتية المبدع تمامًا.. والناقد أيضًا مبدع، والمفكر مبدع، والعالم مبدع.. ولا أدرى من اخترع أن الإبداع خاص

بكتابة القصة والشعر؟!! هو كلام غير صحيح.. فالعلم الطبيعى به إبداع.

(تصنيف مرفوض!!)

•• قدم جيلكم بعض القامات النقدية العالية مثل: رجاء النقاش، عز الدين إسماعيل، إبراهيم فتحى، محمد محمود عبد الرازق، فريدة النقاش، صلاح عيسى.. وغيرهم.. هل تعتقدون أنكم أضفتم إلى رصيد النقد العربى؟!.. ألكم سمات مختلفة عمن سبقكم من أجيال؟

• لا أوافق على التصنيف.. لكن إذا نظرنا للأسماء فلا يعد صلاح عيسى مثلاً نفسه ناقدًا أدبيًا.. فريدة النقاش هناك من يراها (ناقدة سياسية).

والذى يجيب عن هذا التساؤل ينبغى أن يكون أنت وجيلك. إننى لا أستطيع امتداح جيلى.

•• إننا نتحدث فى الشعر عن جيلى، بصفته جيل الثمانينيات، وبلا حرج.. لأننا لا نجد من يتحدث عنا!!

(يتدخل الدكتور وائل غالى شكرى فى الحديث قائلاً: فى الشعر.. من الصعب أن تقول بأفضلية جيل عن آخر، وهذا ممكن فى النقد..).

يواصل د. غالى حديثه:

• ومن هؤلاء الذين ذكرتهم هناك من أضاف فعلاً كرجاء النقاش، صاحب الأسلوب السلس الجميل.. وعز الدين إسماعيل: إنه (ناقد مقطّر) هو (على عينى وراسى).. وهو ليس كالنقاش.

•• اتعدون انفسكم: أنت ورجاء النقاش وعز الدين إسماعيل ثلاث قمم فى هذا الجيل؟!

• لقد نسينا واحدًا مهمًا جدًا من النقاد.. وربما الغيناه، لأنه أخرج كتابًا عن زعيم عربى.. وهو أمير إسكندر.

•• هو الذى ألغى نفسه!!

• «معلش» لكنه ناقد ناقد، بشهادة المعمودية!! أى أنه مولود ناقدًا.. ونسينا ناقدًا آخر: فؤاد دوارة.

•• هو أكبر منكم سنًا.. جيل على الراعى.

• إن النقاد كأفراد ـ بصرف النظر عن مسألة الجيل ـ أشعر بأن أقربهم إلىَّ هو رجاء النقاش.

•• لو أشرتَ إلى سمة خاصة بكل واحد منهم.. فماذا تكون؟؟

• الناقد الناقد عز الدين إسماعيل.. إبراهيم فتحى: الناقد السياسى.. صلاح عيسى: الناقد المؤرخ.. فريدة النقاش: ناقدة واقعية اشتراكية.

•• من المؤكد أن حركة الفكر لا تتوقف عند زمن.. هل قدمت الأجيال التالية لكم نقدا ما يلفت نظرك ويستحق التوقف عنده؟!

• يستحق الرعاية.. يستحق التعاطف.. طبعًا، الأجيال القادمة أهم. لكن «لقمة العيش» طاحنة.. هناك كثيرون لا أتذكر أسماءهم.

•• هل أحسنوا التعبير عن أنفسهم وعن ساحة الإبداع؟؟

• مازال أمامهم الطريق.. لا أستطيع الحكم على كاتب من أول مقالة.

•• هناك ظاهرة غير مريحة فى الوسط الثقافى العربى.. تتمثل فى اقتصار كل ناقد على تناول الإبداع الذى يتفق ورؤيته السياسية والفكرية فقط.. فقد أصبح لليمين نقاده، ولليسار نقاده، مثلما أصبح لهما مبدعوهما.. ما رؤيتك لهذه الظاهرة؟!!

• رؤيتى واضحة فى كتبى.. فكتاب (الرواية العربية فى رحلة العذاب) كتبته عن محمد عبد الحليم عبد الله.. فهل هناك توافق سياسى بيننا؟! أبدًا.. ما قلتَه شائع، لكنه غير صحيح.

•• وهل كل النقاد يحرصون على الموضوعية التى تذكرها؟!!

• لا.. ليسوا جميعا هكذا.. هناك نقاد أقرب إلى الأيديولوجيا وأنا بصراحة واختصار لست قريبا من الأيديولوجيا.. فمقالى (الواقعية الاشتراكية فى النقد العربى الحديث) المنشور بعدد مجلة الآداب عام ١٩٦١، والمكتوب سنة ١٩٦٠ فيصلٌ فى هذا الشأن.

لست أوافق على كثير من الأطروحات التى يقدمها محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس.. وفى كتابى (الماركسية والأدب) أختلف فيه تمامًا مع الماركسيين.. إننى مع العدالة الاجتماعية، وما شابهها من هذه المفاهيم.. لكن الأشكال والقوانين الموضوعة من قِبَل علماء الماركسية فى ذلك الزمن لا توافقنى.

•• وما رأيك فى القصيدة المقفاة التى تكتب حاليًا، ويبرز من شعرائها: محمد التهامى، وإبراهيم عيسى، وعبدالحليم القبانى.. وغيرهم؟؟ ما تقييمك لهذه القصيدة ومبدعيها؟؟

• ليس هذا أصلاً شعرًا حتى أقيِّمه!! لقد فاته الزمن بقطارات متعددة. الشعر الجديد نفسه أصبح به شعر تقليدى.. فكيف أوافق على الشعر المقفى؟!

•• .. والبردونى ومن فى قامته.. أليسوا مؤثرين؟!

• هذه أمثلة بنت الصحراء.. فدعنا منها. كان هناك من قبل عمر أبو ريشة، وبدوى الجبل، والأخطل الصغير.. وقبلهم جميعًا أحمد شوقى.

وهذه نهايات عصر شعرى كامل.. وقد مرت بالفعل.

•• أترى - إذن - أن شوقى وصل بالقصيدة المقفاة إلى قمة صعودها.. وبدأ الانحدار بعد ذلك؟!!

• جماعة أبوللو هى التى وصلت بالقصيدة إلى قمتها: إبراهيم ناجى، على محمود طه، الهمشرى.. وأهمهم على الإطلاق محمود حسن إسماعيل، حتى إنه حاول إبداع الشعر الجديد. هو مجدد.

وهناك مجددون قدماء أيضًا: كأبى تمام وبشار. والتجديد فى الروح، لا فى الشكل. فالشكل تابع للروح.

●●●

• الكبــوة !!

الكبوة!!

فى غمرة ازدهار نشاطه الفكرى فوجئت سائر الأوساط الثقافية فى وطننا العربى بدوى خبر مقتضاه نقل الدكتور غالى شكرى إلى العناية المركزة بمستشفى (المقاولين العرب).. بلا مؤشرات ولا مقدمات ولا إنذار صحى..

لقد كان يمارس حياته العادية اليومية ما بين مجلة القاهرة وجريدة الأهرام، والإعداد لافتتاح المركز القومى للنقد والإبداع ولقاءات متواصلة مع المبدعين ومسئولى الثقافة.

وسقطة كهذه لم يكن من المتوقع أن تأتى خافتة الدوىّ، ولم يكن من الممكن أيضًا ألا تنسج حولها الشائعات والطرائف.

نال الدكتور غالى رذاذٌ من هذا الخيال فقالوا إن واقعة ملحمية ضخمة جرت بينه وبين السيدة حرمه فى المنزل وبين شد وجذب، وإقدام وتراجع، وصراخ وعويل سقط الدكتور فاقدًا الوعى!!!

لكن وعى المثقفين لم يُفْقد حين وقع غالى شكرى فى هوة المرض المفاجئ الذى زاد عبئه أعباءً ذاك التشخيص الخاطئ لبعض الأطباء بالقاهرة، حينما قالوا: إنه جلطة فى المخ، بينما الأمر لم يزد حينها على أنه اضطراب فى نسبة السكر بالدم.

وفى الوقت الذى ظل الأطباء يعالجونه من (الجلطة) ظل عبء السكر يزداد ويوشك أن يفتك بالأمل القليل والومض الضئيل الذى انتظرناه لنجدة المريض.. وكانت النجدة فعلا بسفره إلى باريس واكتشاف الخطأ، بل ربما الجريمة البشعة والجهل القاتل الذى كان سيودى بحياة مفكر ذى قيمة وناقد ذى باع طويل، ومثقف مهموم بقضايا الوطن وحاضره ومستقبله.

نجا غالى شكرى من هذه السقطة السحيقة، ونجا معه عمر طويل من الكفاح القومى لينتقل بهذا الشفاء نقلتين: الأولى من المرض إلى الصحة.. والثانية من العام الستين إلى أول العقد السابع من عمر غالى شكرى المثمر..

●● الاحتمالات والتأويلات والشائعات لم تتركك حتى فى حالة المرض.. لقد ساقوا سببًا طريفًا لهذه الكبوة الصحية فقالوا إنها حدثت بسبب خلافات زوجية شديدة لم تحتمل وقعها!!

● ياليتها تحدث هذه الخلافات!!

●● كيف تقول هذا؟! إن أحدنا - كمتزوجين ولا راد لقضاء الله!! - يتمنى أن يمر عليه يوم بدون نكد ولا تكدير زوجى.. فكيف تتمناه أنت؟!

• لا توجد أية مشاكل من هذا القبيل.. إن هذه الوقعة حدثت فى يوم ٢٩/٨/١٩٩٥.. وهى ليست المرة الأولى التى أدخل فيها مستشفى..

•• لكنها هذه المرة كانت كبيرة!!

• نعم مشكلة كبيرة جدًا.. ودعنى أسأل زوجتى: هل حدثت خلافات بينى وبينك قبل هذا المرض؟!

(وردت السيدة حرم الدكتور غالى شكرى: لا يحدث أبدًا خلافات بيننا!! منذ تزوجنا لم يحدث أي خلاف يمكن أن تسمع الناس به)..

•• ربما تكون الخلافات العابرة التى تعيشها الناس يوميا فى بيوتها..

السيدة حرمه: إن الدكتور غالى طيب جدًا، وحنون جدًا..

• المرض كان مفاجئًا جدًا.. حدث بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك بثلاثة أيام.. هل هناك علاقة؟

•• أكان مرضك حزنا على الرئيس؟

• هو حزن على ما يمكن أن يصيب مصر، ويقع فيها.. ربما كان هذا واردًا.. فلم يحدث لى فى مجلة (القاهرة) ما يغضبنى، وكذلك لم يحدث شىء فى (الأهرام) ولا فى حياتى الخاصة.. إذن ما السبب؟! لا أدرى تمامًا.

•• قد يكون بسبب الإرهاق الزائد كما ذكر رجاء النقاش.

• ألا يرهق هو نفسه أيضًا؟!!

•• لا أظن إرهاقه يصل إلى حالة الخطورة..

• إنه يكتب فى المصور، والكواكب، والأهرام فى مصر غير مقالته العربية.. هو يرهق نفسه أيضًا.

أنا فعلاً أبذل جهدًا زائدًا لكن لا أحد يعرفه: إنه فى القراءة والمتابعة. فقد أكون فى الثانية عشرة مساءً أقرأ ديوانا لأحمد زرزور لما ينشر بعد.. أو مجموعة شعرية لأديبة شابة وقد أكون فى الثالثة صباحًا أقرأ ديوان المتنبى إننى قارئ نهم. والقراءة لدىَّ تسبق الكتابة.. فمقالى أكتبه فى رأسى أولاً، ولا يحتمل وقتًا كبيرًا حينما أجلس لكى أسطره..

•• أتجرى تغييرات كثيرة عليه بعد كتابته؟

• لا.. إذا كتبته فمرة واحدة..

•• صف لى - مفاجأة المرض لك؟! بماذا أحسست وكيف كانت بوادره؟!

• صبيحة يوم ٨/٢٩ استيقظت مبكرًا، فى حوالى الثامنة والنصف.. فقد كان مقررًا أن نجتمع فى الأوبرا لنذهب إلى الرئيس مبارك.. وبغير مقدمات قلت فى المنزل: لن أذهب إلى هذا الموعد.. وحقنت (بالأنسولين) ثم أفطرت ونمت مرة أخرى حتى العاشرة والنصف، ووجدت نفسى ملقى من فوق السرير.. لا أدرى كيف، وهل صحوت

أم لا.. فانطلق صراخى منادياً زوجتى وابنتى لنجدتى. فحملونى ولم تكن تستطيع رجلاى أن تحملانى.. فارتديت ملابسى.. وبدأت اتصالات ابنتى بالأهرام وبالدكتور ممدوح البلتاجى، وهو صديق العائلة. وكان لابد من استدعاء د. خيرى سمرة فتولى هو هذه المهمة. ومن طريق أخر كان د. أسامة الباز يحاول الاتصال به. وحضر فعلاً د. خيرى..

فى ذلك الوقت لم أكن أعرف ولا أحس بشىء مما يدور حولى. يبدو أن حالتى كانت متردية جدًا فشخصت بأنها جلطة.. وحين وقعت هذه الحالة لى فى المنزل نزلت على قدمى، وكنت بالمستشفى أتحدث وأعى ما حولى قبل أن أفقد الوعى تمامًا وبالتدريج.

ولم يتنبه أحد إلى أن ما أعانيه ارتفاع فى السكر، وليس جلطة فى المخ.. ذلك رغم أن ابنتى قالت فى المستشفى إن أبى يعانى من السكر، ولم يتنبه أحد لقولها.

لقد قدر الله ولطف.. فى ذلك الوقت كانت هناك اتصالات بين أسرتى والأستاذ فاروق حسنى وزير الثقافة، وقد كان هو المعجزة الحقيقية: لقد أصر على أن أسافر إلى فرنسا حتى ولو كانت احتمالات شفائى واحدًا فى المائة.. وحمل أوراقى إلى الدكتور عاطف صدقى، وانتظره حتى انتهى من أحد اجتماعاته ليوافق له على سفرى إلى باريس للعلاج. وكانت الثانية عشرة مساءً حين وصل قرار الموافقة إلى منزلنا. وجاءت موافقة رئيس الوزراء إرضاء لرغبة

الأستاذ فاروق، كما ذكر له.. لأن أخاه ـ كما قال د. عاطف ـ تعرض لجلطة فى المخ أيضًا ولم يكن هناك أمل فى شفائه، فمات بسببها.. أى أنه لم يرَ أملاً فى شفائى!!

أما الدكتور ممدوح البلتاجى فقد تولى تعجيل إجراءات السفر بالمطار، وتوفير قاعة كبار الزوار لاستقبالى بشكل لائق.

واستصدر الدكتور ثروت عكاشة الورقة الصفراء للطبيب المرافق معى إلى فرنسا.. لم أكن واعيًا لكل هذا، لكن قيل لى.

وصلت فرنسا وأنا فى غيبوبة، وهناك اكتشفوا أننى أعانى من السكر، لا جلطة فى المخ.. فبدأوا فى محاصرته وكان التقرير الطبى يقول إنها نوبة سكر حادة، نتج عنها ضيق فى الشرايين، وتقلص فيها، أدى إلى ما يشبه جلطة، لكنه ليس جلطة.

ومعالجة الجلطة فى مصر، وترك السكر نتج عنها أن السكر وصل إلى (٨٥٠).. لقد عالجوا فى مصر مرضًا غير موجود لدى، وتركوا السبب الأصلى.. وقد أدى هذا الضيق فى الشرايين إلى توقف الوظائف العضوية فى الساق اليسرى واليد اليسرى.

وبعد ثمانٍ وأربعين ساعة من العلاج بباريس بدأت أتكلم.. ففاجأت الناس جميعًا.. لأنهم كانوا يتوقعون موتى.

•• لم يكن يتوقع أحد هذا!!

• لا.. لقد كانوا يتوقعونه.. بما فيهم المثقفون.. لأن خيرى سمره قال هذا: إنه لا أمل.

أفقت فى فرنسا بعد يومين، وتحدثت، وعرفت أصدقائى.

•• لحظة إفاقتك الأولى.. ماذا رأيت وسمعت؟!

• من أطرف الأشياء أننى سألت ابنى.. فقلت له: إنت مصرى؟!! ولست أتذكر لحظة الإفاقة الأولى على وجه التحديد.

•• معنى سؤالك الطريف هذا أنك كنت واعيا بوجودك خارج الوطن: فى باريس..

• المرحلة الواقعة بين الغيبوبة والصحو كانت مظلمة جدًا فى ذاكرتى.. حلمت بها أحلامًا مزعجة.. أسميها الآن أحلامًا لكنى رأيت فعلا هذه الغرائب: ومنها أننى رأيت ابنتى هدى إلى جانبى جثة هامدة، وعيناها مأخوذتان.. وبعد أيام قال لى ابنى إن هدى مازالت فى مصر، ولم تأتِ بعد.

•• من زارك فى باريس، على سرير المرض؟!

• كثيرون جدًا.. أولهم أبو عمار ياسر عرفات، وآخرهم زوجته السيدة سها الطويل، وقد عرض علىَّ أن يدفع مصروفات العلاج، ويتكفل بها جميعا.. فاعتذرت له شاكرًا، وقائلا إن الحكومة المصرية تدفع كل شىء.. ودفعك يعنى إحراجًا لها.

وزارنى السفير المصرى، وجميع رؤساء المكاتب بالسفارة وكذلك عائلة الشوباشى (على وشريف وفريدة) جميعا، كانوا موجودين معى يوميًا وكان د. فوزى فهمى يسأل عنى يوميًا، ويبلغ وزير الثقافة

بحالتى.. ومحمود درويش وصبحى الحديدى كانا يزورانى يوميا.. وأبعد ما كنت أتوقعه أن يسأل عنى الدكتور عبد القادر حاتم، وقد فعل!!

•• بعد مثل هذه السقطات المرضية الخطيرة، يسترجع الإنسان - فى العادة - مفاهيم عن الحياة والناس والأصدقاء..

• لا أقيس زيارة الأصدقاء بما حدث.. أى ليس مهما أن يزورونى لقد حدث لى تغير جذرى: بأن أصبحت مسامحًا جدًا.. فمثلا أنت تحدثت عن رجاء النقاش وسؤاله عنى، لكنه لم يزرنى، بل لم يتصل حتى تليفونيا.. وأحمد عبد المعطى حجازى لم يزرنى حتى اليوم قال إنه سيزورنى غدًا..

إننى لا أفكر فى هذا الأمر، ولا أغضب له، ولا أحزن لأجله!!

وعندما انتهى العلاج الصحى بمحاصرة السكر ومضاعفاته خلال أربعين يومًا.. بقى العلاج الطبيعى، فرأيت أن أجريه فى مصر، فعدت إلى بلدى.. فربما يساعد وجودى بين أبنائى وأصدقائى على سرعة الشفاء.

•• فى مثل هذه الأزمات يحس الإنسان أنه ضعيف، فيلجأ دائمًا إلى الله.. فيدعوه ويتوسل إليه.. أحدث لك شىء من هذا القبيل؟!!

• القوة عندى هى (القلم): أن أكتب وأعبر عن فكرى.. ولآخر لحظة كنت أشعر بهذا الدور وبتلك القوة.. وحين استطعت الإمساك بالقلم لم أوفر نفسى.. كتبت فورًا مقالاتى هذه التى تنشر بالأهرام، فلم

أشعر أننى ضعيف فى أى وقت. وكان الأطباء الفرنسيون يذهلون لاستجابتى للعلاج بسرعة كبيرة فما يحتاج إليه المريض من علاج فى شهر أتلقاه أنا فى أيام وأستجيب له، لأننى أريد أن أمشى وأتحرك، ولا أهمية لى إلا إذا مشيت وتحركت وكتبت.

كنت أشعر بحاجتى إلى الناس: أحب أن يسألوا علىَّ، وأن يزورونى. وحين عدت وجدت فى المطار فوزى فهمى ورجال أربع وزارات فى انتظارى: الإعلام والتعليم والثقافة والسياحة.. وكان كل مسئولى وزارة الثقافة حاضرين مع فوزى فهمى: محمد غنيم، جابر عصفور، سمير سرحان.... ولم يكن هناك من هو مقصر.

وكان أكثر الأدباء حرصًا على معرفة أخبارى إبراهيم أصلان: اتصل بى فى باريس أربع مرات. واتصل إدوار الخراط، جمال الغيطانى، خيرى شلبى، محمود الوردانى، عزت القمحاوى. ومن الأديبات: سلوى بكر، هالة البدرى، نعمات البحيرى هؤلاء من أتذكرهم.

•• إذن لم يكن هناك أى تأثر بالميتافيزيقا بعد هذه السقطة الصحية..

• لا.. أبدًا!! إذا كانت الرحلة قد انتهت فلتنته بسلام وإذا كان هناك فسحة من الوقت لى، فأنا عند موقفى.. وأنا أفضل الحياة على الموت.

●●●

صدر للكاتب

● الشعر:

- فصل من التاريخ الخاص (ديوان) .... هيئة الكتاب ١٩٨٩.
- الميلاد غداً (ديوان) ... ... هيئة قصور الثقافة ١٩٩٦
- اليوم العاشر (ملحمة) ... ... هيئة الكتاب ١٩٩٣
- مذكرات فلاح (ديوان) ... ... هيئة الكتاب ١٩٩٩

● الدراسات :

- مع الضاحكين (فى الأدب الساخر) ... . مكتبة أوزوريس ١٩٩٥
- مديوان القاهرة (فى التأريخ والنقد) ... ... صندوق التنمية الثقافية وهيئة الكتاب ١٩٩٨

وله تحت الطبع

- السيادة اللغوية (فى علم اللغة)
- حديث النساء.
- إلى سلوى.
- امرأة وقصائد.
- الإبداع الجديد وقضايا المجتمع.

محتويات الكتاب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٦٧٤ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 7016 -X